دليل المناضل في النظرية

٤

ڤ. آفاناسييف

المادية الديالكتيكية





دليل المناضل
في النظرية ـ ٤ ـ

ف. أ. ڤاناسييف

المادية الديالكتيكية

ترجمة: ماهر لقطينة

بيروت ـ كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
هاتف : ٣١٢٣٣٥ ـ ص٠ب : ١١٩٣٠٨

المادية الديالكتيكية

دار ابن خلدون

بيروت ـ كورنيش المزرعة ـ بناية ريفييرا سنتر
هاتف : ٣١٢٢٣٥ ـ ص٠ب : ١١٩٣٠٨

الطبعة الاولى
ـ ١٩٧٦ ـ

المادة وأشكال وجودها

نعلم أن الشيء الاساسي في المادية الديالكتيكية هو الطريقة التي تحل بموجبها المسألة الاساسية للفلسفة : العلاقة بين المادة والوعي .

(١) ما هي المادة ؟

يحيط بنا كمية لا نهاية لها من الأجسام المختلفة ، بعضها من الطبيعة غير الحية : بدءا من جزئيات الذرة الصغيرة جدا وانتهاء بالاجسام الكونية الهائلة . وبعضها الاخر من الطبيعة الحية : بدءا من أبسط الجسيمات وانتهاء بأعقدها . نجد بعضها بالقرب منا : نعيش بينها ونحس بوجودها . والبعض الاخر بعيدا عنا على مسافات شاسعة لا حدود لها . نستطيع رؤية قسم منها بالعين المجردة ، بينما نستخدم أجهزة معقدة للغاية من اجل رؤية الاخرى . وتتمتع هذه الاجسام بميزات وخاصات مختلفة ومتباينة .

ولكن منذ زمن طويل ، يتساءل الانسان : أليس للاجسام المحيطة به اساس مشترك وقرائن مشتركة ؟
شيئا فشيئا ، اقتنع الأنسان بالتجربة المكتسبة وبتطور العلوم الطبيعية والممارسة العملية ، أن الموضوعات والظواهر ، وان اختلفت وتنوعت ، فهي كلها مادية وموجودة خارج الوعي وبصورة مستقلة عنه . لقد أثبتت العلوم الطبيعية ، بصورة لا تقبل

الجدل ، بأن الارض موجودة منذ ملايين وملايين السنين وقبل ظهور الانسان وبقية الكائنات الحية عليها . اذا، فالمادة والطبيعة موجودتان موضوعيا ، بصورة مستقلة عن الانسان . **والوعي نفسه ليس سوى نتاج تطور العالم المادي الطويل .**

تتمتع كل الموضوعات والظواهر بخاصة مشتركة ، وهي كونها واقع موضوعي موجود خارج الوعي ومعكوس فيه . وهذا بالحقيقة ما يدعى بالمفهوم الفلسفي للمادة أو مقولة المادة .

ان مقولة المادة هي مفهوم واسع جدا ، لا تشمل فقط موضوعا واحدا ، ولا عملية واحدة ، ولا حتى مجموعة موضوعات أو ظواهر ، بل تشمل العالم الحقيقي بمجمله . ويعبر تجريد الخاصيات ، اي ميزات وأشكال الموضوعات وارتباطاتها الملموسة وتفاعلاتها، عما هو مشترك وأساسي في الموضوعات وعما هو موضوعي حقيقة ، أي وجودها بصورة مستقلة عن الوعي الانساني .

ان مفهوم المادة هو في الوقت نفسه مقولة هامة جدا في المعرفة . فبفضل هذا المفهوم ، يستطيع الانسان فهم العالم واغتراف معارفه ، انه الاساس الذي يتيح حل المسائل الاكثر اهمية في المادية الديالكتيكية **في مجال نظرية المعرفة .**

ان المبادىء الاساسية لمفهوم العالم المادي الديالكتيكي هي اعترافه بموضوعية العالم المحيط وقدرة الانسان على معرفته . وبالتالي فان مفهوم المادة ، الذي يعكس

هذه المبادىء ، هو المقولة الاساسية للمادية الديالكتيكية .

كذلك فان مفهوم المادة هام جدا لبقية العلوم ،وبشكل خاص العلوم الطبيعية · وما العلوم الا دعابة لا قيمة لها اذا لم تقم بدراسة العالم الموضوعي .

وقد أعطى لينين ، في كتابه المادية ونقد العلم ، هذا التعريف الكامل والعلمي حقيقة للمادة :

« المادة هي مقولة فلسفية تدل على الواقع الموضوعي المعطى للانسان في احساساته التي تنقله وتصوره وتعكسه ، وهو موجود بصورة مستقلة عنها »·(١)

وسيكون من الصعب أن نبالغ في تقدير مدى هذا التعريف . فهو يسمح ، مستندا على تجربة الانسانية المتراكمة خلال تاريخها ، بفهم العالم بصورة صحيحة، ويعلم الناس أن يستندوا في الممارسة العملية والمعرفة على الواقع نفسه ، على الظروف المادية الموضوعية ، وليس على أفكارهم الذاتية . ويفتح أمام العقل ،مؤكدا على فهم العالم ، آفاقا غير محدودة ، وأخيرا يحث الفكر ويساعد الانسان على الدخول الى أعماق العالم السرية .

يعكس التعريف اللينيني للمادة التناقض الاساسي بين المادية الديالكتيكية ، من جهة ، والمثالية

---

١ ـ لينين ـ المؤلفات ·

واللاادرية ، من جهة اخرى . كما ينطوي أيضا على معنى الحادي عميق ، مجردا بذلك خرافة الخالق من كل اساس لها · ففي الحقيقة المادة الاولية والازلية غير مخلوقة وغير فانية . انها العلة النهائية والجوهرية لكل ما هو موجود . وفي عالم حيث المادة هي العلة الاولى ، أي أساس كل شيء ، لا يكون فيه أي مكان لخالق ولا لبقية القوى فوق الطبيعية .

لهذا السبب ، عارض دائما المثاليون ورجال الكنيسة الاقرار بالمادة . فالمثاليون السابقون ، من أفلاطون الى بركلي ، أصروا على القضاء على مفهوم المادة . كما شن اتباع ماخ **MACH** (١) حربا صليبية حقيقية من أجل المهمة نفسها . ويتابع ممثلون عديدون للمثالية والاتجاه التحريفي أعمال أسلافهم . ان غاية هذه الانتقادات العديدة لمفهوم المادة هي تقويض المفهوم الاساسي للمادية ، ونفي المادة من الفلسفة والعلم وشق الطريق أمام الايمان والمثالية واللاادرية .

غير انه لم تقم هذه الانتقادات على اسس· اذ يثبت تطور العلوم والممارسة العملية للانسانية ان المادة موجودة كواقع موضوعي وانها غير متناهية وسرمدية. وما كل هذه الاشياء والموضوعات والعمليات الا مظاهر

---

(١) ماخ ـ فيلسوف مثالي نمساوي اسس اتجاها مثاليا في الفلسفة ، في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين·وقد قدم لينين نقدا كاملا وعميقا لنظريته في كتابه المادية ونقد العلم·

واشكال للمادة المتحركة . لذلك فالعالم المحيط مادي وحيد . ولكن مظاهر وأشكال المادة متنوعة جدا ، وهذا ما اثبتته التجربة الشخصية والانجازات العلمية. وهذا يعني أن العالم المادي هو وحدة في التنوع .

لا يمكن لاي شيء في العالم المادي، مهما كان صغيرا، ان ينشأ من العدم ولا أن يزول دون ترك أثر . فموت الشيء يولد شيئا آخرا، ويولد هذا الشيء الثاني ثالثا، وهكذا الى ما لا نهاية . وتتغير وتتبدل الاشياء الملموسة باستمرار ، ولكن المادة لا تولد ولا تزول .

مفهوم المادة واللوحة المادية للعالم .

يجب ان نميز المفهوم الفلسفي لمادة لوحة العالم العلمية ، عن صور المادة الملموسة ، في بنيتها وحالتها وتنوعها ، التي ظهرت في اثناء تطور العلوم الطبيعية . وتتبدل هذه الصور وتتطور باستمرار ، كما تتغير أحيانا بشكل كامل ، ولكن ذلك لا يشوه في أي شيء، المفهوم الفلسفي للمادة، الواقع الموضوعي الموجود خارج وعينا .

ويخلط المثاليون عمدا ، وهم يحاولون دحض المادية، المفهوم الفلسفي للمادة مع بقية المفاهيم العلمية عن بنية الاجسام الملموسة . فيتذرعون بتبدل هذه المفاهيم، والاقلاع عن بعض وجهات النظر ، والاستعاضة عنها بوجهات نظر أخرى متكاملة دائما ، « كزوال » المادة و « انهيار » المادية .

ظل الماديون الميتافيزيقيون ، خلال قرون عديدة ،

يماثلون المادة بالذرة واعتبروها غير منقسمة وغامضة. ولكن ، في نهاية القرن التاسع عشر ، تم اكتشاف الالكترون،ذلك الجزيئية الصغير جدا من الذرة ، ثم اكتشفت فيما بعد ، بقية الجزيئيات . وهكذا أصبحت الذرة ذاتها ظاهرة معقدة للغاية . فاثبتت أن خواص الالكترون لا تشبه مطلقا خواص الذرة . وبالتالي ، انهارت تصورات الفيزيائيين الميتافيزيقيين ، بينما استغل الفلاسفة المثاليون المصاعب التيبرزتللتحدث عن تحول الذرة الى طاقة ، عن زوال المادة .

وأظهر لينين في المادية ونقد العلم التجريبي أن لا اساس لأراء المثاليين هذه ٠ واثبت،بفضل الاكتشافات العلمية الجديدة ، ان ليست المادة هيالتيتزول،ولكن حدود المعرفة التي نملكها . فبالامس ، كانت الذرة هي حدود معارفنا ، أما اليوم فهو الالكترون ، وغدا سيكون شيء آخر . اننا نحاول دائما أن نغوص بمعارفنا الى داخل المادة لنكشف عن سمات جديدة دائما ، واشكال جديدة ، أكثر عمقا وأكثر دقة . وما الالكترون بالتأكيد، الا أحد اشكال المادة . وقد قال لينين ، معمما آخر مكتسبات العلم :

« وكما الذرة غير فانية فالالكترون ايضا غير فان، والطبيعة غير متناهية والمعرفة لا حدود لها٠» (١)

وقد اثبتت آخر مكتشفات العلم ، وخاصة الفيزياء،

---

١ ــ لينين ــ المؤلفات .

صحة افكار لينين حول تنوع المادة النوعي ، وبنيتها وخصائصها غير المتناهية .

الجوهر SUBSTANCE هو احد اشكال المادة الذي أقره علم الفيزياء الحديث . والجوهر هو كل ماله كتلة ميكانيكية أو كما يقول الفيزيائيون ، كل ماله « كتلة ساكنة » . والاجسام الميكروسكوبية (غير المرئية) هي جواهر مكونة من جزئيات ، تكون بدورها الذرات . وتكون الاجسام والجزئيات والذرات متنوعة جدا . ولكن لا يتوقف التنوع النوعي هنا . فللذرات نفسها بنية معقدة ، وهي مكونة من جسيمات « بسيطة » : البروتونات والنوترونات التي تشكل النواة ، ومن الكترونات تدور بسرعة هائلة حول النواة .والجسيمات التي أتينا على ذكرها ، والجسيمات الاخرى مثل (الميزون — والهيبرون ... الخ) ، هي أصغر الجسيمات المعروفة في المادة حتى اليوم . لقد دعوناها بالجسيمات البسيطة، لاننا لم نستطع حتى الان تجزيئها الى جسيمات أصغر . وبالتأكيد فان لهذه الجسيمات ، الشبيهة بالذرة ، بنية معقدة . ولكنها تتصف بظاهرة متميزة : امكانية وجودها في حالة حرة . فالاشعة الكونية مثلا ، تحتوي على أعداد هائلة من هذه الجسيمات .

واكتشف في السنوات الاخيرة ما سمي « باضداد الجسيمات » ، مثل (بوزيترون — انتي بروتون ،... الخ) ، التي تتميز عن الجسيمات العادية (الالكترون — بروتون) باشارة شحنتها الكهربائية .

عندما كتب **لينين** المادية ونقد العلم التجريبي ، لم يكن معروفا الا جسيم بسيط واحد هو الالكترون . اما اليوم ، فاننا نعرف أكثر من ثلاثين من هذه الجسيمات البسيطة المتنوعة والمتحركة والقابلةللتغير من جسيم الى اخر . وكشفت الفيزياء ، الى جانب اكتشافها لهذه الجسيمات الذرية، عن تنوع خصائصها، وأثبتت سرمديتها . واليوم مثلا ، لا نستطيع تصور الالكترون كجسيم غير متبدل ، فهو مستمر وغيرمستمر، وله ميزات الجسيم والموجة ، والكتلة ، والشحنة الكهربائية ، واللحظة المغناطيسية ، ... الخ . كذلك تملك الجسيمات البسيطة خصائص عديدة ومختلفة ومتنوعة .

والمجال ، الذي اكتشفه العلم الحديث ، هو أحد الاشكال الاساسية للمادة . فالمجال الفيزيائي هو تكون مادي يوحد الاجسام وينقل عمل جسم الى آخر . ولقد عرف مجال الجاذبية والمجال الكهرطيسي ، منذ القرن التاسع عشر . ودعيت عناصر أو جسيمات المجال الكهرطيسي بالفوتونات **PHOTHON** أو الضوئيات . وتختلف الفوتونات عن جسيمات الجوهر ، اذ ليس لها كتلة ساكنة . ومن جهة أخرى ، فانها تنتقل في الفراغ بسرعة ثابتة دائما / ٣٠٠ الف كلم / ثا ، بينما تختلف سرعة تنقل الجسيمات الاخرى ، ولكن لا يمكن أن تبلغ أو تتجاوز سرعة الفوتونات .

وفضلا عن المجال الكهرطيسي ومجال الجاذبية ، توجد مجالات أخرى مثل : المجالات النووية ، والمجالات الالكترونية ... الخ . ولكل من هذه المجالات جسيمات

خاصة تختلف بخصائصها عن ميزات الفوتون .

وهكذا ، يختلف الجوهر والمجال كثيرا ، من حيث البنية والخصائص . ولا تظهر الحدود بينهما بوضوح الا في العالم المرئي ، بينما تكون هذه الحدود نسبية في العالم غير المرئي . اذ تكون بعض الجسيمات ، مثل الميزونات ، في الوقت نفسه ، عناصر للمجال المقابل . فالجوهر والمجال لا ينفصلان ، وهما في تفاعل مستمر ، ويمكنهما ، في بعض الظروف ، أن يتحولا أحدهما الى الاخر . وهكذا ، يستطيع جسيمان (الالكترون - بوزيترون) أن يتحولا ، في ظروف معينة ، الى فوتونات ، أي الى عناصر المجال الكهرطيسي ، ولقد أثبتت هذه التجربة الهامة في الفيزياء ، مرة أخرى ، وحدة العالم المادي ، وحركته وتغيره .

كانت الابحاث التي تمت على جسيمات أكبر من الجزئيات العادية (على البوليميرات العالية: كاوتشوك ، النشاء ، سيلليلوز .. الخ) مساهمة في نظرية بنية المادة . اذ تتشكل هذه المركبات من مجموعات متشابهة من الذرات ، مكونة بذلك سلاسل أو تشكيلات أخرى اكثر تعقيدا .

وباكتشافه البوليميرات العليا، دخل العقل البشري في مجال الواقع الموجود على حدود الميكروزومات والماكروزومات . ويستخدم الكثير من هذه البوليميرات العليا ، وخاصة الهيولينات ، كمواد في بناء المادة الحية . اذا ، كان اكتشافها خطوة هامة جدا الى الامام من أجل توضيح جوهر ظواهر الحياة ، ومن اجل تمثل

وتوجيه العمليات الحياتية .

وهكذا ، أثبتت كل منجزات الفيزياء ، والكيمياء والعلوم الاخرى ، فرضيات المادية الديالكتيكية عن موضوعية المادة ، ووحدة وتنوع العالم ، وسرمدية المادة والخاصية غير المحدودة للمعرفة الانسانية .

غير أنه من الملاحظ أن كل علم ، مهما كانت انجازاته، يصطدم بمصاعب وعقبات ، كما أنه لم يستطع حل كل مشاكله . فيعمد أعداء المعرفة العلمية الى استغلال هذه الظاهرة : أعلن ممثلو الكنيسة أن العلم عاجز عن تجاوز هذه المصاعب ، فرفضوا الطرق العلمية ودعوا للعودة الى الله والى الايمان . اذ بالايمان وحده ، أي باتحاد الانسان مع الله، نستطيع وضع لوحة حقيقية للعالم .

ومن جهة أخرى ، يستغل الفلاسفة البرجوازيون ، وبعض الفيزيائيين المثاليين عقبات العلم ليدحضوا المادية . فها هم يعلنون أن هذه الجسيمات البسيطة غير المرئية مباشرة ، ليست أجساما مادية ، بل بنيات منطقية . (يمكن ادراكها بالعقل) .

ولكن جسيمات الذرة، في الحقيقة، مادية وموضوعية كالذرة نفسها ، وكالجزئيات المكونة من الذرات ، وكالاجسام المركبة من الجزئيات .

انها عناصر ذات طبيعة واحدة ، عناصر من العالم المادي . فلو لم توجد الذرة وجزئياتها ، لما عملت المراكز الذرية الكهربائية ولا شقت كاسحات الجليد السوفياتية

المحيطات .

وهكذا ، فمعارفنا نسبية حول بنية وصفات التركيبات المادية الملموسة ، ان كانت الالكترون أو الذرة أو الجزيء أو الجسم . ولقد تطورت عبر الزمن وستتابع مسيرة تطورها في المستقبل، مع بقائها واقعا موضوعيا.

ويميز الاقرار الواضح والمطلق بوجود المادة خارج وعي وأحاسيس الانسان ، المادية الديالكتيكية عن كل النظم المثالية واللاأدرية .

اذن فالعالم مادي بطبيعته، وكل ما هو موجود فيه عبارة عن أشكال للمادة . وليست المادة شيئا جامدا وخاملا ، بل هي في حركة دائمة في المكان والزمان اللذين هما شكلا وجود المادة الاساسيان . لذا سنأتي على دراسة هذين الشكلين ليتيسر لنا فهم الجوهر المادي للعالم .

٢ الحركة هي شكل من أشكال وجود المادة

لا توجد المادة الا في **الحركة** ، كما تظهر وتتوضح من خلالها . وتثبت لنا ذلك الاحداث اليومية وتطور العلم والممارسة العملية .

ولنأخذ مثلا ، الذرة . فهي لا توجد كجسم مادي محدد الا لان الجسيمات البسيطة المركبة لها تكون في حركة دائمة . اذن ، لا يمكن للذرة أن توجد دون حركة، وكذلك كل الاجسام الاخرى . اذ يموت الجسم ما ان يتوقف تبادل المادة بينه وبين الوسط المحيط .

وبفضل الحركة ، تظهر الاجسام المادية وتؤثر على اعضاء حواسنا . فالشمس ، مثلا ، تشع باستمرار في الفضاء الكوني أعدادا لا تحصى من الجسيمات . وعندما تصل الى الارض ، تؤثر على أعضاء حواسنا ، مما يدلنا على وجود الشمس . ولولا حركة هذه الجسيمات لما أدركنا وجود الشمس الواقعة على بعد ١٥٠ مليون كيلو متر عن الارض .

وكذلك حال بقية الاجسام المادية : توجد وتظهر عندما تكون في حركة . وهي ليست فقط جسيمات بسيطة داخل الذرات ، بل هي أيضا ذرات داخل الجزئيات ، وجزئيات داخل الأجسام المتحركة . اذن ، تتحرك كل مجموع الاجسام الارضية والكونية ، كما تتبدل أيضا الأجسام الحية والحياة الاجتماعية . ولا يمكن أن نجد جسيما في العالم المادي دون حركة ودون تطور .

فالحركة اذا ،هي أحد أشكال وجود المادة وخاصيتها الثابتة . « الحركة هي شكل وجود المادة . ولا توجد مادة دون حركة ولا يمكن لها أن توجد » . (١)

الحركة مطلقة اما السكون فنسبي

حركة المادة مطلقة وسرمدية . فلا نستطيع خلقها ولا افناءها ، كما اننا لا نستطيع خلق مادة أو افناءها .

---

١ ــ فريدريك انجلز . ضد دوهرينغ .

وقد أثبت ذلك قانون حفظ وتحول الطاقة : لا تولد المادة والحركة ولا تفنيان بل تتغير ، تنتقل من شكل الى آخر .

ولكن اذا كانت الحركة سرمدية ومطلقة ، فهل يوجد السكون ؟ نعم ، يوجد بالتأكيد . اذ تحتوي التطورات المادية **على لحظات توازن ، لحظات** سكون . ولكن لا تؤثر هذه اللحظات في مجمل المادة ، بل تتعلق فقط ببعض الموضوعات والعمليات . اذ بالضرورة تفرض الخاصية المطلقة للحركة السكون ، الشرط الضروري للتطور **الشامل . ينشأ الموضوع** في الحركة ، بينما يدعم السكون ويثبت نتيجة الحركة : خلال فترة من الزمن ، يبقى الموضوع كما نشأ .

وعلى عكس الحركة ، فالسكون نسبي ، ولكن ليست هذه الحالة حالة ثابتة ، غير متغيرة . اذ لا يكون الجسم في حالة سكون الا بالنسبة لجسم آخر . اذا فهو يساهم بالضرورة في الحركة الكونية . وهكذا نقول ان المنزل الذي نسكنه هو غير متحرك بالنسبة لسطح الارض ، ولكنه يدور مع الارض حول المحور الارضي ، كما يتنقل معها حول الشمس ، وهكذا ... الخ . وفضلا عن ذلك ، تجري بصورة مستمرة ، في كل جسم ساكن ، عمليات فيزيائية وكيماوية وعمليات أخرى مختلفة .

نستخلص اذن ، أن حركة المادة سرمدية ، مطلقة ، بينما **للسكون صفة مؤقتة ، انه نسبي** ، وليس له سوى عنصر حركة واحد .

فما هي مظاهر وأشكال الحركة ؟

اشكال حركة المادة

كان الماديون قبل ماركس قد أقروا هم أيضا بخاصية حركة المادة الشاملة . ولكنهم فهموا هذه الحركة بصورة ضيقة ، ميتافيزيقية · ففصلوها عن التغيرات ، عن تطور الاجسام ، وفي أغلب الاحيان كانوا يدركونها مثل تنقل ميكانيكي في المكان .

أما المادية الديالكتيكية فلا ترجع تنوع أشكال الحركة الى الشكل الميكانيكي فحسب أو الى أي شكل آخر . بل تربط الحركة بتطور تغير الاجسام ، بولادة الجديد وفناء القديم · كما تدرك الحركة ، بصورة أشمل وكذلك الظواهر التي تجري في الكون ، بدءا من أبسط التنقلات الميكانيكية والى أعقد العمليات ، مثل الفكر الانساني .

ان أشكال ومظاهر الحركة عديدة جدا . وتصنف المادية الديالكتيكية ، المدعومة بانجازات علوم الطبيعة، مختلف أنواع الحركة ، كما تميز الاكثر أهمية منها .

وكان انجلز اول من وضع تصنيفا علميا لاشكال حركة المادة . فصنف في حقل الاشكال الاساسية الحركات الميكانيكية ، والفيزيائية ، والكيماوية ، والبيولوجيه ، والاجتماعية وأعاد كلا من هذه الاشكال الى أحد مظاهر المادة المحددة : الحركة الميكانيكية الى الاجسام الارضية والسماوية ، الحركة الفيزيائية الى الجسيمات ... الـخ .

وحتى أيامنا هذه ، يحتفظ تصنيف أنجلز هذا بقيمته

العلمية، على الرغم من اغناء مفاهيمنا عن هذه الاشكال، بفضل آخر اكتشافات العلم .

وهكذا ، كان ميتافيزيقيو القرن التاسع عشر يفهمون الحركة الميكانيكية على انها تنقل الاجسام المرئية في المكان . بينما نعلم اليوم أن التنقلات الفضائية مرتبطة بكل التشكلات المادية ، بدءا من الجسيمات البسيطة وحتى الجسم الحي . لذا لا يمكننا اسناد الحركة الميكانيكية الى الاجسام المرئية فقط ، بل الى كل المادة، والى كل أشكال الحركة الاخرى ، على الرغم من أن الحركة تأخذ في هذه الاشكال الاخرى ، غير الميكانيكية، صفة تابعة ، ثانوية .

لقد أغتنت مفاهيمنا عن الشكل الفيزيائي للحركة وتعمقت بصورة ملموسة بفضل معرفتنا للذرة . اذ اكتشفت ودرست أشكال جديدة للحركة الفيزيائية ، مثل الحركات داخل الذرة وداخل النواة . لقد أسند انجلز الشكل الفيزيائي للحركة الى العمليات الجزيئيه. ولكن ، على ضوء الاكتشافات الاخيرة ، فان هذا الشكل من الحركة سيشمل مجموعة أكبر من الظواهر : الحرارية ، الكهربائية ، المغناطيسية ، الذرية الداخلية، والنووية الداخلية ، وعدة عمليات داخل الاجسام الصلبة والسائلة والغازية ، المرتبطة بحركة الجسيمات البسيطة ، ... الخ .

يشمل الشكل الكيماوي للحركة اتحاد وتشرد الذرات التي تتكون بفضلها الذرات أو تنشطر ، والتي هي أساس كل التركيبات الكيماوية . وترافق العمليات

الكيماويةحركة الالكترونات التي تشكلالطبقة المحيطية للذرات . والتحولات الكيماوية منتشرة بشكل واسعفي الطبيعة العضوية كما في الطبيعة غير العضوية .

وتعتبر الحركة البيولوجية احد اعقد اشكال حركة المادة . وتشمل العمليات العديدة التي تجري في الاجسام الحية . وتتعلق هذه العمليات بالهيولينات ، حاملة الحياة ، التي تتصف بمقدرة الاستمرار على تبادل المادة مع الوسط المحيط . فيتم ، بفضل هذا التبادل ، تجديد ذاتي مستمر لتركيب الهيولينات الكيماوي ، وهذه هي في الحقيقة الخاصية الاساسية للمادة الحية .

والحياة **الاجتماعية ، أي تاريخ المجتمع** البشري هو أحد الاشكال الاكثر كمالاً للحركة والمتميز جوهرياونوعيا عن بقية الاشكال الاخرى .

واشكال حركة المادة مرتبطة ببعضها بصوره لا تنفصل . وأساس وحدتها وترابطها الداخلي وحدةالعالم المادية . كما يمكن أن يتحول أحد أشكالها الى شكل آخر ، في بعض الظروف . وهكذا ، تولد الحركة الميكانيكية الحرارة ، والصوت ، والضوء ، والكهرباء وأنواعا أخرىللحركة الفيزيائية. وينتج تفاعلالعمليات الفيزيائية تحولات كيماوية، وتولد هذه في بعضالظروف الحياة العضوية .

تكون الاشكال الدنيا لحركة المادة مرتبطة دائما بالشكل الاعلى . فتتطلب مثلا الحركة البيولوجية عمليات ميكانيكية ، وفيزيائية وكيماوية .. ولكن يجب

أن لا نرجع الاشكال العليا للحركة الى الاشكال الدنيا. فالشكل الاعلى يخضع لقوانينه الخاصة التي تميزه عن الاشكال الدنيا وتحدد خواصه النوعية.

وهكذا، تتميز الحياة العضوية عن الطبيعة غير الحية « بالاستقلاب » (١). أما فيما يتعلق بالعمليات الميكانيكية والفيزيائية والكيماوية للاجسام، فلا تلعب دورا مستقلا وتكون خاضعة لما هو أساسي في الجسم.

وهكذا، فان الشيء الهام في المفهوم المادي الديالكتيكي للحركة، هو الاقرار بأنه مطلق وشامل، هو الاخذ بعين الاعتبار الخواص النوعية لكل شكل من أشكاله، وقدرتها على التحول بصورة تبادلية، واستحالة ارجاع الاشكال العليا الى الاشكال الدنيا.

النظريات التي تفصل المادة عن الحركة

لقد ذكرنا بأنه لا يمكن للمادة أن تكون ساكنة وجامدة، وأن المادة والحركة غير منفصلتين. غير أنه ما يزال يوجد أناس يحاولون ادراك المادة بدون حركة، وفصلها عن الحركة.

فها هم أنصار نظريات الموت الحراري للكون «

---

١ ـ الاستقلاب : عملية متناقضة : تمثل المواد الغذائية من الوسط الخارجي وتحويلها الى خلايا حية، الى انسجة للجسم من جهة، ومن جهة اخرى تفكك وموت هذا النسيج الحي ـ المترجم ـ

يتحدثون ، مشوهين معطيات العلم ، عن نهاية العالم، عن موت كل ما هو موجود . فيتعللون بحدث وضعه العلم ، منذ زمن طويل ، وذلك أن كل أشكال الطاقة تتحول بسهولة الى طاقة حرارية ، بينما تعترض العملية المعاكسة مصاعب وتفرض انفاق طاقة اضافية . ونعلم من جهة أخرى ، أنه اذا أعطينا حرارة لجسم ووضعناه في مكان بارد ، فانه يبرد ويعطي حرارته للوسط المحيط . وبتعميم هذا المبدأ على مجمل الكون، توصل هؤلاء الفلاسفة الى الاستنتاج بأن الكواكب المتوهجة ستعطي يوما ما كل حرارتها الى الفضاء الكوني·وبالتالي سينتهي الكون الى حالة من التوازن، أي الى الموت الحراري . ولن يكون الا كتلا من الاجسام الباردة . وتتحول كل أشكال الحركة الى حركة حرارية، لن تكون قادرة على تقبل تحولات جديدة . فتفقد المادة قدرتها على التحرك .

وعلى الرغم من دحض أنجلز (١) لهذه النظرية ،يتابع المثاليون الدفاع عنها ، ويستخدمها اللاهوتيون كاثبات للخرافة الدينية عن نهاية العالم .

من وجهة نظر علمية ، فان نظرية الموت الحراري هي دون أي أساس . فهي تتجاهل قانون حفظ وتحول الطاقة الذي يؤكد على عدم فناء الحركة كما ونوعا . والقول بأن الحركة لا يمكن أن توجد تحت شكل واحد فقط من أشكالها ، هو انتهاك لهذا القانون . وفوق

---

١ ـ راجع انجلز في ديالكتيك الطبيعة .

ذلك لا يمكن أن توجد مادة ساكنة ، أي في حالة تتوقف فيها عن التحول ، عن الانتقال من شكل الى آخر . وكما أن حفظ الحركة الكمي المرافق لهذا التغيير هو طبيعي ومنطقي ، كذلك يكون تغير أشكال الحركة .

تثبت آخر انجازات علم الفلك أن حركة المادة لا تتوقف أبدا ، في الكون . وأن المادة والطاقة منتشرة في بعض اجزائه ، وفي بعضها الاخر تتكثف وتولد اجساما سماوية جديدة . وقد قال ف. امبارتزوميان ، عضو أكاديمية العلوم السوفياتية ، بأنه ، في أيامنا هذه ، تتشكل نجوم جديدة بمجموعات مما يثبت عدم وجود حالة جامدة وساكنة للمادة .

ولكن ، هل توجد الحركة ، في هذه الحالة ، من تلقاء ذاتها ودون أن يكون لها أي ناقل مادي ما ؟

نعم ، هذا ما اعتقده ممثلو مذهب الطاقة **energè Tisme** ، الذي ظهر في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين . فخلطوا المادة بالحركة والطاقة ، ورفضوا الاعتراف بالمادة : لقد كان مذهبا مثاليا صرفا.

وفي أيامنا هذه ، يمدح انصار مذهب الطاقة المثالية بالحاح خاص . فيؤكدون ، وهم يشوهون مكتسبات العلم ، على زوال المادة وتحولها الى طاقة . ويأخذون مثالا على ذلك ، تحول الجسيمات المتناقضة في الذرة (الكترونات ــ بوزيترونات) الى فوتونات ، الى جسيمات المجال الكهرطيسي ، التي ليست ، في نظرهم ، سوى ضوء أي طاقة صافية ، طاقة دون مادة ، وهكذا ينتهون الى القول بأن المادة تزول وتتحول

الى طاقة . ولكننا نعلم أن الفوتونات هي جسيمات المجال ، جسيمات مادة من نوع خاص . اذا ، في اللحظة التي يتحول فيها الالكترون والبوزيترون الى فوتونات،فذلك يعني ان ليست المادةهي التي تتحول الى طاقة ، بل نوع من المادة ، الجوهر ، هو الذي يتحول الى نوع آخر ، الى مجال .

وتثبت انجازات الفيزياء الحديثة ، وقبل كل شيء ، قانون تعادل الكتلة والطاقة الذي اكتشفه الفيزيائي العظيم البرت اينشتاين (١٨٧٩ ــ ١٩٥٥) في بداية القرن العشرين ، ضعف هذا المذهب بصورة كاملة .

وينص هذا القانون على أن كتلة الجسم تتطلب كمية مقابلة من الطاقة . ويكون من الصعب وضع هذه العلاقة عندما تكون السرعات قليلة الاهمية نسبيا .

ولكن عندما تنتقل الاجسام بسرعة قريبة من سرعة الضوء ــ للجسيمات البسيطة في لحظة التحولات **النووية مثل هذه السرعة** ــ تصبح زيادة كتلتها ذات شأن . ولقد أثبت بصورة تجريبية تبدل الكتلة بدلالة السرعة . ولكن الكتلة هي مقياس للمادة ، بينما الطاقة هي مقياس للحركة . لذا فان هذا القانون يوضح ترابط ووحدة المادة والحركة .

يؤكد ما قلناه على عدم وجود المادة دون حركة ، ولا يمكن أن توجد ، ولا وجود ، لحركة « صرفة » منفصلة عن المادة . ولا توجد المادة والحركة الا متحدتان .

٣ ـ المكان والزمان

المفهوم الفلسفي للمكان والزمان

نكتشف عند دراستنا بامعان للموضوعات المحيطة بنا بأنها كلها في حركة ، كما لها امتداد وأبعاد . يمكن أن تكون أكبر أو أصغر ، ولكن لها كلها طول وعرض وارتفاع ، كما تحتل مكانا وحجما محددين . وتحتل الموضوعات ، في كونها لها امتداد ، مكانا محددا من بعضها البعض . فتكون أبعد أو أقرب الينا ، أعلى أو أدنى ، الى اليسار أو الى اليمين .

وتعكس مقدرة الاجسام المشتركة في حيازتها على امتداد ، واحتلالها مكانا محددا ووجودها ، على شكل خاص . بين بقية الموضوعات المفهوم الفلسفي للمكان .

ولا توجد الموضوعات فقط في المكان ، بل تتعاقب فيه وفق نظام معين ، اذ تحل محل بعضها البعض . ولكل موضوع فترة ، بداية ونهاية . ويتم تطوره على مراحل ، فيتقلب بعدة حالات مختلفة . وعندما تنشأ بعض الموضوعات،يكون بعض منها موجودا منذ وقت، وبعضها الاخر قد زال .

تشكل السمة المشتركة لكل العمليات المادية ، في تتابعها التدريجي المنتظم وفي تطورها على مراحل ، **المفهوم الفلسفي للزمان** .

ان الزمان والمكان هما الشكلان الشاملان لوجود المادة ... كتب **لينين** :

((ما من شيء في العالم غير المادة المتحركة ، ولا تستطيع المادة المتحركة التحرك الا في المكان والزمان)) . (١)

والموضوعية، أي الاستقلاليةبالنسبة لوعي الانسان، خاصة الزمان والمكان الهامة : ان أشكال المادة الاساسية الموجودة موضوعيا ، لا يمكن ان تكون الا موضوعية .

تنكر المثالية موضوعية المكان والزمان . ويعتبرهما المثاليون الذاتيون نتاج الوعي الانساني . اذ نشأ المكان والزمان ، برأيهم ، من الفكرة المطلقة ، من الروح الشاملة .

لقد أثبت **لينين** ، في المادية ونقد العلم التجريبي ، ضعف المفاهيم المثالية للمكان والزمان . وكتب يقول :

« لو افترضنا مع المثاليين ان ليس المكان والزمان سوى نتاج العقل البشري ، فماذا بهذه الظاهرة الحقيقية التي أثبتها العلم : لقد وجدت الارض ، في الزمان والمكان ، قبل الانسان ، وجدت منذ مليارات السنين بينما وجد الانسان منذ عشرات الالوف من السنين فقط. لذلك لا يمكن ان يكون المكان والزمان من عمل الانسان وخلقه. »

وكشفت المادية الديالكتيكية ، مؤكدة على موضوعية المكان والزمان ، خصائص أخرى من خصائصها العامة،

---

١ ـ لينين ـ المؤلفات .

منطلقة من أن هذه الخصائص تعود الى طبيعة المادة نفسها . وهكذا ، تحدد سرمدية ولا نهائية المادة سرمدية الزمان ولا نهائية المكان . وبالتالي ، انه لم يكن لهما بداية ولن يكون لهما نهاية .وفي ايامنا هذه ، يكتشف العلم جسامة الكون ، واستوعب مدد الزمان الهائلة . فمثلا ، يقوم علماء الفلك ، بواسطة التلسكوبات اللاسلكية ، بدراسة الاجسام المادية الموجودة على مسافة مليارات السنين الضوئية عن الارض . (أي اذا كان الضوء ينتشر بسرعة ٣٠٠ الف كيلو متر في الثانية ، فان مسافة مليار سنة ضوئية تعادل ٩٫٥ والى جانبها ٢١ صفرا من الكيلومترات !) . ولكن تبقى هذه المسافات بدون معنى اذا ما قورنت بلا نهائية العالم ، كذلك تبقى مليارات السنين بالنسبة لسرمدية الكون .

للمادة ثلاثة ابعاد . انها سمة المكان الخاصة في كونه شكلا من أشكال المادة . اذا ، فلكل جسم مادي ثلاثة أبعاد : الطول ، والعرض والارتفاع . لذا يستطيع هذا الجسم التنقل في ثلاثة أبعاد عامودية .

وعلى عكس المكان ، ليس للزمان سوى بعد واحد، اذ تتطور كل الاجسام زمنيا في اتجاه واحد : من الماضي الى المستقبل . والزمن غير قابل للانعكاس . ومن المستحيل ارجاعه الى الماضي واحياء ما فني .

المفهوم العلمي للمكان والزمان

من المناسب أن نميز المفاهيم الفلسفية للمكان والزمان ، الشكلين الشاملين لوجود المادة ، عنالافكار

العلمية عن خواص الموضوعات المادية الملموسة المكانية والزمنية .

تتطور هذه الافكار،خلال تطور العلم وتتوضح كما يتم اكتشاف خواص جديدة للمكان والزمان ، فيتدعم بذلك ارتباط هذه الخواص مع طبيعة الاجسام المادية .

وهكذا ، كان علم الميكانيك الكلاسيكي ، مع اقراره بموضوعية المكان والزمان ، يفصلهما عن المادة ويعتبرهما غير متبدلين ومتجانسين بصورة مطلقة . وكان مؤسس هذا العلم ، **اسحق نيوتن** (١٦٤٢ ــ ١٧٢٧) **ISSAe Newten** يشبه المكان بوعاء ضخمَ فيه الاشياء مرتبة وفق نظام معين . كما أعتبر نيوتن أن لكل الاجسام خواصا مكانية متشابهة وان هندسة اوكليد ، التي أعتبرها هندسة مطلقة والوحيدة الممكنة ، تفسرها بشكل كامل .

وكانت آراء نيوتن عن الزمان ميتافيزيقية أيضا .

نقح الرياضي الروسي **نيقولاي لوباتشفسكي** (١٧٩٢ ــ ١٨٥٦) في القرن التاسع عشر ، رياضيات أوكليد، فرفض مفاهيم المكان الميتافيزيقية ، ووسع مفاهيمنا عن الخواص المكانية للاجسام . فتوصل الى الاستنتاج بأن خواص مختلف قطاعات الكون غير متشابهة ، وانها مرتبطة بطبيعة الاجسام الفيزيائية والعمليات المادية التي تجري فيها . وباقتناعه بوجود أجسام ذات خواص مكانية تتجاوز نطاق هندسة اوكليد ، اكتشف هذه الخواص الجديدة وأثبت أيضا بأنه في بعض السطوح لا يكون مجموع زوايا المثلث ١٨٠ ٥ ، كما نصت هندسة

أوكليد ، بل أقل من ذلك .

تنص نظرية اينشتاين النسبية بأن الخواص المكانية والزمانية للاجسام تتعلق بسرعة حركتها . ولا تلاحظ هذه العلاقة عندما تكون السرعات قليلة الاهمية نسبيا، بل تلاحظ فقط عندما تقترب سرعة الحركة من سرعة الضوء .

فوفق هذه النظرية ، ينقص طول الجسم المتحرك بالنسبة للجسم الساكن ، كلما اقتربت السرعة من سرعة الضوء . وكذلك لا يبقى الزمان ثابتا . فعندما تزداد السرعة ، تصبح مسيرة الزمان أكثر بطئا . ولقد أثبتت صحة استنتاجات النظرية النسبية بصورة تجريبية . فالميزون ، مثلا ، الجسيم البسيط الذي يولد في أثناء تحطم النواة الذرية ، لا يعيش الا فترة بسيطة من الزمن ، ولكن كلما ازدادت السرعة طالت مدة « حياته » .

ولا يتغير الزمان والمكان بصورة عفوية ، وفقاللنظرية النسبية ، بل بترابط لا ينفصل بينهما .. ويكون هذا الترابط وثيقا جدا بحيث يشكلان كلا لا ينفصل ، ويقوم الزمان هنا بدور البعد الرابع ، الذي يضاف الى أبعاد المكان الثلاثة . كما تقدم هذه النظرية أيضا تعبيرا رياضيا بحتا للترابط العضوي بين المكان والزمان .

وتثبت النظرية النسبية المطلقة بأن خواص المكان والزمان تتعلق بوجود كتل المادة . فيتغير المكان بالقرب من الاجسام التي لها كتلة ضخمة وقوى جاذبية هائلة، أو كما يقول الفيزيائيون ، يخرب . ويتغير الزمان

بالمقابل أيضا : يتباطأ سيره .

تبدو النظرية النسبية ، للوهلة الاولى ، مناقضة لافكارنا المألوفة عن خواص المكان والزمان . ولكنها في الواقع حقيقية ، وقد اثبتتها التجارب العلمية ، كما برهنت على عدم وجوب الاكتفاء بالافكار المألوفة ، بل النظر بعمق الى بعيد واكتشاف كل تعقيد العالم المادي وتنوعه .

تتبدل المفاهيم العلمية لخواص المكان والزمان . ولكن هذا التغيير لا ينفي ابدا مفهوم المادية الديالكتيكية عن وجودهما الموضوعي . بل على العكس ، يؤكد كل نجاح علمي جديد ويدعم موضوعية الزمان والمكان ، وعلاقتهما غير المنفصلة مع المادة والحركة .

الفصل الثاني

المادة والوعــي

نعلم الان ما هي المادة وما هي اشكال وجودهـــا .
كما نعلم انها موجودة خارج وعـــي الانسان وبصورة مستقلة عنه . ولكن ما هو الوعي ؟ وما هي علاقتـــه بالمادة ؟ ومن أين نتج ؟

١ ـــ الوعي هو خاصية مادة عالية التنظيم .

قبل الحديث عن ماهية الوعي ، نعيد للذهن اننـــا ندعو نشاط الانسان الواعـــي ، الروحـــي ، أفكـــاره ومشاعره ، وارادته وخاصيتها ، واحساساته .وافكاره وآراءه ،... الـــخ . اذا ، ما هـــي طبيعة كل هذه الظواهر ، وما هو أصلها ؟

لقد اجتازت العلوم الطبيعية والفلسفة طريقا طويلة وصعبة قبل ان تتمكن من الاجابة بشكل صحيح عـــن هذا السؤال .

أثبت العلم الحديث **إن الوعي هو نتيجة تطور المادة الطويل** . لقد وجدت دائما المادة ، الطبيعة ، بينمـــا الانسان هو نتيجة حديثة نسبيا لتطور العالم المادي . اذ لزم ملايين وملايين السنين لكي يؤدي تطور المادة الى ظهور الانسان القادر على التفكير . ان الوعي هو نتاج الطبيعة ، وخاصية المادة ، وليس كل مادة ، بل المادة العالية التنظيم ، أي دماغ الانسان .

ويكون الوعي ، بكونه نتيجة تطور المادة ، مرتبطـــا

ارتباطا وثيقا معها ، وبشكل لا ينفصل مع المادة المفكرة، مع الدماغ . وقد أكد العالمان الروسيان ايفان سيتشنوف (١٨٢٩ — ١٩٠٥) وايفان بافلوف (١٨٤٩ — ١٩٣٦) بأنه تجري في دماغ الانسان ، وبشكل خاص في قشرته ، عمليات مادية فيزيولوجية هي أساس كل نشاط نفسي . لذا تسبب تشوهات نشاط الدماغ العادي ، وخلله أثر الامراض والرضوض وعلات أخرى، اضطرابات شديدة للنشاط العقلي ، اضطرابات نفسية . وقد استنتج **بافلوف** ، معتمدا على معطيات اختبارية عديدة بأن « .... النشاط الجسدي هو نتيجة النشاط الفيزيولوجي لكتلة محددة من الدماغ .. »

يعتبر مذهب بافلوف حول النشاط العصبي الاعلى اثباتا هاما للمسألة الاساسية للمادية الدياليكتيكية في ارتباط الوعي بالمادة . وفي الحقيقة ، فان الدماغ والعمليات الفيزيولوجية التي تدور فيه هي اساس الوعي الانساني ، وهي الشرط المادي الذي بدونه لا يمكن ادراك الفكر الانساني .

ولكن هل يكفي وجود الدماغ ، لوحده ، ليتمكن الوعي من العمل ؟ من التفكير بمفرده ، وبصورة مستقلة عن العالم المحيط ؟

كلا ، فالدماغ عاجز عن التفكير بمفرده . وقد قال بافلوف :

« ان الدماغ ليس كالبيانو نأخذ منه ما نريد من الالحان . لان الوعي مرتبط ارتباطا وثيقا بالوسط المادي المحيط بالانسان ولا يمكن له ان يعمل دون ان يتأثر بهذا الوسط . ولا يمكن ان تنشأ

الاحساسات البصرية والسمعية والشمية وغيرها ، في الدماغ الا تحت تأثير الموضوعات الموجودة بصورة حقيقية ، اي تحت تأثير الوانها وروائحها واصواتها وغيرها من الخواص· فتؤثر هذه الموضوعات بخواصها على اعضاء حواسنا ، ثم ترسل هذه التنبيهات ، عن طريق الاقنية العصبية ، الى قشرة نصفي كرة الدماغ حيث تتكون الاحساسات المطابقة · وعلى اساس هذه الاحساسات تتشكل التصورات والادراكات ، والافكار وكل اشكال التفكير الاخرى · وليست كل هذه الا صور ، انعكاسات الى حد ما صحيحة للموضوعات والظواهر الموجودة موضوعيا · ولا يمكن ان تنشأ اية صورة في وعي الانسان ، خارجا عن ذلك · اذا ، فان المقدرة على عكس العالم المادي هي ميزة خاصة للوعي ، هي ميزة الدماغ » ·

وهكذا ، نجيب على السؤال المطروح في بداية هذا الفصل عن طبيعة الوعي بان وعي الانسان هو ميزة خاصة لمادة عالية التنظيم ، للدماغ ، وفي عكس الواقع المادي .

ضعف المادية العامية والمثالية

أليس الوعي ، في كونه غير منفصل عن المادة العالية التنظيم ، في كونه نتاجها ، نوعا من المادة ؟ وأليس مشابها لها ؟ هكذا كان يفكر الماديون العاميون (١) . وقد ماثلوا المادة والوعي استنادا الى العلاقة القائمة بينهما . فمثلا ، كان **فوغ VOgT** يقول ، بأن الدماغ

---

١ ـ المادية العامية ـ اتجاه فلسفي ظهر في المانيا ، في منتصف القرن التاسع عشر ·

يفرز الفكرة ، التي هي بالنسبة للدماغ بمثابة الصفراء بالنسبة للكبد .

رفضت المادية الديالكتيكية المفهوم العامي للوعي ، استنادا الى مكتسبات العلوم الطبيعية . والوعي ، على الرغم من كونه مرتبطا بعمليات فيزيولوجية مادية محددة ، لا يمكن ارجاعه الى هذه العمليات . كما لا يمكن مماثلة التفكير بالمادة ، على الرغم من عدم انفصاله عنها . ولقد اعتبر **لينين** القول بأن التفكير مادي خطوة خاطئة تؤدي الى التباس وغموض بين المادية والمثالية .

ليس التفكير شيئا ، اذ لا يمكن رؤيته ولا تصوره. انه صورة موضوعات وظواهر العالم ، ولكنها صورة مثالية ، غير مادية . غير انها ليست صورة بسيطة للواقع ، ولا نسخة جامدة ، بل الواقع المتحول بصورة ملائمة في رأس الانسان . وقد كتب **ماركس** يقول :

« ... ليست حركة التفكير سوى انعكاس لحركة حقيقية ، منقولة الى دماغ الانسان » (١) .

ويمر الواقع دائما ، بتأثيره على الانسان ، عبر عدة عمليات للتفكير ، تحليل ، تركيب ، تعميم ... الخ . وان الإنسان يتميز عن الحيوان بمقدرته على التفكير ، اي بمقدرته علي عكس الواقع والتأثير عليه . وبوضع أهداف له ومحاولة انجازها .

---

١ ـ كارل ماركس ـ رأس المال .

واعتبرت أيضا المادية الديالكتيكية ، برفضها مفهوم المادية العامية عن الوعي ، أن التأكيد على ارتباط الوعي والفكرة بكل مادة ، خاطىء من أساسه . فمثلا، اعتبر **سبينوزا** Spinoza ان الوعي هو ميزة من ميزات الطبيعة ، كالامتداد والجسمانية .

يخطىء كل الذين يأخذون بوجهة النظر هذه ، لانهم يجهلون الفروق النوعية بين المادة غير العضوية والمادة العضوية ، وبشكل خاص المادة القادرة على التفكير .
وقد قال **لينين** بأن الاحساس في شكله الواضح لا يخص الا الاشكال العضوية العليا للمادة . بينما لا تستطيع المادة بصورة اجمالية الا عكس ، اي الرد بشكل معين على التأثيرات الخارجية . وتخص هذه الميزة ، في بعض الحالات ، الاحساس ولكنها لا تماثله . وكذلك لا نستطيع اعتبار الوعي خاصة كل مادة .

في الوقت الراهن ، وبفضل نجاحات علم جديد **سيبرنيتيك** (١)، أمكن احياء محاولات اضفاء مقدرة التفكير الى الطبيعة غير الحية . وأتاح هذا العلم ،الذي يدرس مختلف نظم وعمليات التوجيه ، بناء آلات مذهلة. اذ استطاع بعضها قيادة الطائرات والقطارات ، والقيام بعمليات رياضية معقدة جدا ،.. الخ. كما واستطاع بعضها الآخر ترجمة نص من لغة الى أخرى، والقيام بعمليات رياضية معقدة جدا ... الخ . كما

---

١ ـ السيبرنيتيك ـ علم الاجهزة ذات القيادة الذاتية ـ علم التوجيه .

تستطيع هذه الالات تلقي معلومات مختلفة من الخارج ، والاحتفاظ بها في ذاكرتها ، وتمثلها وتنفيذ أعقد الاعمال. ولقد اتخذ بعض العلماء من ذلك ذريعة لاضفاء قدرة الاحساس وحتى التفكير على هذه الالات الاوتوماتيكية .

ولكن ، في الحقيقة ، لا تملك اية آلة ـ آلية قدرة الاحساس ، ولا قدرة التفكير ، مهما كانت درجة اتقانها . فالانسان هو الوحيد القادر على الاحساس والتفكير ، اذ انه نتاج تطور العالم المادي الطويل وقبل كل شيء نتاج الوسط الاجتماعي . فينفصل عن الطبيعة ويتعرف على الواقع المحيط ، ويمارس عليه تأثيرا فعالا ويحوله . وقدرات الانسان على الابداع لا تنضب ، اذ يخلق أثمن القيم الثقافية . بينما الالة عاجزة عن ذلك ، لانها عمل عقل الانسان الذي يدرك ويديه الخبيرتين .

اذن ، لا يمكننا مماثلة الوعي بالمادة . ولكن ، هل يمكن للوعي أن يوجد ذاتيا وبصورة مستقلة عن المادة ؟

نعم ، يقول المثاليون. فالوعي برأيهم مثالي . ولو لم تكن الفكرة مثالية ، غير مادية ، لكان من المستحيل تحديد مكانها في الدماغ . اذا ، هي غير مرتبطة بالمادة ، بالدماغ ، وتوجد مستقلة عنه. ولا توجد فقط مستقلة عن المادة ، بل «تخلقها». انهم لا يحاولون ان يروا ، خلف الفكرة ، نموذجها الاصلي ، أشياء وموضوعات العالم الموضوعي .

ان محاولات فصل التفكير عن الدماغ لا أساس لها

ابدا . اذ تؤكد الفلسفة التي تقوم بمثل هذه المحاولات على امكانية وجود الفكرة دون دماغ . ولقد قال عنها لينين بدعابة انها فلسفة « فارغة » . وقال أيضا أن علوم الطبيعة تثبت بأصرار أن الوعي لا يوجد خارج الجسم ، وانه وظيفة الدماغ ، انعكاس العالم الخارجي .

ومن جهة أخرى ، لا يمكن فصل الوعي عن المادة بشكل مطلق ، وطالما أنه خاصة المادة العالية التنظيم ، فهو ينشأ ويتطور تحت تأثير العوامل المادية . وفضلا عن ذلك ، يكتسب الوعي بعض الاستقلالية ، بنشوئه على أساس مادي ، ويمارس تأثيرا فعالا على تطور العالم المادي .

٢ ـ الوعي هو نتاج تطور المادة

اصل وتطور الوعي

ان خاصة الانعكاس الشاملة ، أي المقدرة على اعادة التنظيم داخليا تحت تأثير فعل خارجي ، على الرد بشكل مناسب على التأثيرات الخارجية ، هي خاصة ملازمة لكل مادة . وتتطلب عملية الانعكاس دائما تفاعل جسمين أو اكثر : الجسم المؤثر والجسم الذي يتلقى التأثير . ولذا نقول أن خاصة الانعكاس تتعلق بالمؤثرات الخارجية كما تتعلق بالحالة الداخلية للجسم الذي يقوم بالرد على هذا التأثير .

ومن خلال هذا الاسلوب في التفكير ، نلاحظ أن الانسان يعكس العالم بصورة مختلفة عما يعكسه أي جسم حي آخر (غير الانسان) وأي جسم غير عضوي.

فالجسم غير الحي يعكس العالم سلبيا ، أنه انعكاس بسيط ، لأنه لا يميز مطلقا العوامل من الوسط ، كما انه لا يعرف اختيار العوامل الملائمة ولا يستطيع وقاية نفسه من العوامل غير الملائمة .

أما الجسم الحي (غير الانسان) فيرد بصورة مختلفة عن رد الاجسام غير العضوية . فهو يتلاءم مع الوسط ، ويقوم بالرد بصور متميزة على مختلف المنبهات الآتية من الخارج ، اذ يستخدم العوامل الملائمة ويتحاشى العوامل الضارة والتي لا فائدة منها . ولا يستطيع أن يعيش وأن يتطور الا بتلاؤمه مع الوسط .

أما شكل انعكاس الانسان فهو من مرتبة علياوجديدة نوعيا . وبما انه قادر على عكس الواقع بصورة واعية، فلا يكتفي فقط بالتلاؤم مع الوسط ، بل يؤثر فيه ويغيره على اساس المعارف التي اكتسبها .

فاذا قلنا أن المعرفة هي أصل الوعي ، فذلك يعني مراقبة كيفية تحول الانعكاس غير الحي السلبي ، في اللحظة التي تصبح فيها المادة الجامدة مادة حية ، ومن ثم مادة قادرة على التفكير ، التي تصبح فيها دماغا انسانيا ، الى انعكاس اصطفائي وفعال للكائنات الحية، الى ان اكتسب القدرة على التفكير .

من المادة غير الحية الى المادة الحية

ومن المادة الحية الى المادة القادرة على التفكير

أثبتت العلوم الطبيعية ، بأحداث وبراهين عديدة ، ان الطبيعة الحية قد نتجت عن الطبيعة غير الحية ، غير العضوية . اذ ليس هنالك حواجز بينهما لا يمكن اجتيازها . كما اثبت التحليل الكيماوي بأن كل الاجسام، الحية وغير الحية ، مكونة العناصر الكيماوية ذاتها . اذ نجد في الاجسام ، وبكميات كبيرة ، الهيدرجين والاكسجين ، وبشكل خاص الفحم الذي هو أساس التركيب الكيماوي للاجسام الحية ونتاج نشاطها الحيوي .

لقد افترض العلم بأن المادة البدائية المركبة من غاز وغبار ، كانت تحتوي على مركبات بسيطة جدا من الفحم والهيدرجين مع مواد أخرى ، على مائيات الفحم التي كانت أصل المركبات الكيماوية الأكثر تعقيدا . وبالتصادها مع بعضها البعض ، بدأت المركبات العضوية بالتعقيد ، وشكلت مركبات آمينية ، العنصر الاساسي لجزيء الالبومين (الآحين) . وكلما تلوعت المواد العضوية واصبحت اكثر تعقيدا ، كلما اصبحت قدرتها على الانعكاس أكثر تنوعا وأكثر كمالا .

لقد مرت ملايين السنين قبل أن تتحول جزئيات أول آحين كيماوي ، المكون من حموض آمينية ، الى جسم آحيني حي مكتسبا قدرة التبادل التي هي الخاصة

الاساسية لكل كائن حي . كانت الهيولينات في البدء وبقية التركيبات العضوية المعقدة ممزوجة مع أملاح غير عضوية ، مشكلة خلائط على شكل نقط ، الكواسرفات coacervates ، قادرة ، في وسط مائي ، على تبادل وامتصاص مواد عضوية أخرى . ثم ولدت الكواسرفات التي كانت أكثر صلابة ، أجساما هيولية كثيرة الجزيئات قادرة على الحياة . ثم تحولت الى أجسام بعد وضعها في وسط ملائم ، واستقلبت معه .

والإستقلاب عملية متناقضة مكونة من التمثل (تمثل المواد الغذائية من الوسط الخارجي وتحويلها الى خلايا حية ، الى انسجة للجسم) ، ومن تضاد التمثل (التفكك، موت هذا النسيج الحي) . وليست هذه الخاصة الا خاصة الجسم الهيولي الحي ، خاصة الجسم . ويميز التبادل مع الوسط ، التجدد الذاتي المستمر ، الجسم الحي البسيط جدا عن الجسم الجامد الاكثر تعقيدا . اذ لا يستطيع الجسم الحياة والتطور الا بتمثله المواد المغذية وطرحه نتاج تفككها .

« ان الحياة هي طريق وجود اشباه الاجسام البروتينية ، التي يعتبر عنصرها الاساسي تبادل المواد المستمر مع الطبيعة الخارجية المحيطة بها ، بينما تتوقف حياتها مع توقف هذا التبادل ... » (١)

كان نشوء الاجسام البسيطة جدا خطوة كبيرة في تطور قدرة الانعكاس ، خاصة المادة ، في ظهور الوعي .

---

١ ـ فريدريك انجلز ـ ديالكتيك الطبيعة .

وتحولت طريقة الانعكاس الملازمة للطبيعة غير الحية الى انعكاس بيولوجي ، الى انعكاس جديد نوعيا . والانفعالية ، الميزة الخاصة للاجسام الحية ، ووسيلة توجيهها وتلاؤمها مع الوسط ، هي الشكل الاكثربساطة للانعكاس البيولوجي .

وبما ان النباتات ، مثلا ، حساسة جدا لضوء الشمس،فانها تمتد نحو النورالذيهو ينبوع حياتها · والمتمورات ، أبسط الاجسام وحيدة الخلية ، ترد على المحرضات الغذائية : اذا التهمت الاغذية ، فلا تعود تؤثر عليها هذه المحرضات الغذائية أبدا . اذن تعكس المتمورات ، مثل كل جسم قابل للتحريض ، العالم الخارجي بصورة اصطفائية وليس بصورة لا مبالية · وللمتمورات قدرة على الاختيار ولكن ليست كبيرة ، اذ ليس لها بعد أعضاء ونسج وخلايا متخصصة في أنواع المحرضات . انها ترد من تلقاء ذاتها على المحرضات الخارجية .

وفي اثناء التطور ، ومن خلال تعقيد الاجساموظروف وجودها ينشأ شكل جديد عال للانعكاس،على اساس الانعكاسية : الاحساس . كتب لينين يقول :

« تتحول طاقة المحرضات الخارجية الى وعي ، في الاحساس والاحساس مثل الانفعالية ، هو نتيجة الفعل الذي يمارسه العالم الخارجي على الجسم الحي ، ولكن مع زيادة عدد المحرضات التي وجب على الجسم الرد عليها ، اذ لزم عليه ، من الان فصاعدا ، الرد على الالوان ، على الروائح ، على الاصوات ، على الذوق، على البرد والحرارة والرطوبة ، وعلى بقية الافعال الميكانيكية والجسدية ···الخ · لقد اصبح للجسم الان اعضاء متخصصة .

قادرة على ادراك المؤثرات الخارجية بدقة (اللون ـ الصوت ـ الرائحة ... الخ) . واغتنت فينا بعد وتنوعت هذه الاحاسيس مع تطور الاجسام . كما تلاءمت بصورة افضل مع الوسط ، وظهر فيها عضو خاص متن صلاتها مع الوسط ، انه الجهاز العصبي . »

أوضح علم الحياة نظرية الارتكاسات ، التي تثبت بجلاء تباين مقدرة عكس العالم والتلاؤم مع الوسط في الحيوانات الدنيا وفي الحيوانات العليا . والارتكاسات هي ردود فعل الجسم على المؤثرات الخارجية . وتنقسم الى ارتكاسات مشروطة وارتكاسات غير مشروطة . وتخص الارتكاسات المشروطة كل الاجسام الدنيا والعليا ، وهي وراثية وغريزية . ومثال ذلك : يسحب الانسان يده لدى ملامستها شيئا حارا . وتتكون الغرائز من تشابك الارتكاسات غير المشروطة المعقد (الجنسية، الغذائية ... الخ) التي تقوم بدور كبير في حياة وتطور الجسم الحي .

وتملك الحيوانات العليا ، الى جانب الارتكاسات غير المشروطة ، ارتكاسات مشروطة مؤقتة ، تتشكل في ظروف محددة . فمثلاً ، اذا رافقنا تقديم طعام لكلب بصوت رنين جرس ، يأتي وقت يرد فيه الكلب على صوت الجرس وحتى لو لم يقدم له الطعام : يفرز لعابا ، لحدوث ارتباط مؤقت في دماغه بين الطعام وصوت الجرس . وتبعا لهذا المبدأ ، تتكون بقية الارتكاسات المشروطة . وبفضلها ، يتلاءم بدقة تامة الجسم الحي مع الوسط ويرد على ابسط مؤثراته . فتتمتن مؤثرات الارتكاسات المشروطة وتصبح غير

مشروطة ، وتنشأ على اساسها ارتباطات مؤقتة ، ثم يتمتن جزء منها بدوره. وهكذا تم احراز التقدم المستمر من خلال التطور لقدرات الاجسام الحية النفسية الى أن حازت على قدرة التفكير .

دور العمل الحاسم في تكوين الوعي .

يملك الانسان والحيوانات العليا القدرة على الإحساس . وتستند هذه القدرة ، حسب **بافلوف** ، على أساس فيزيولوجي مشترك للانسان والحيوانات، اول نظام للاشارات، الآلية التي يرد الجسم بواسطتها على المؤثرات المباشرة للموضوعات والظواهر الملموسة . فعندما تؤثر هذه الموضوعات ، التي هي الاشارات الوحيدة للحيوان ، على أعضاء الحواس ، فتولد في جهازه العصبي احساسات مقابلة .

ولكن احساسات الانسان ، على عكس احساسات الحيوانات ، تكون ملهمة من العقل . لانه يملك موهبة التفكير المجرد ، أي انعكاس يعمم الواقع بمفاهيم معبر عنها بكلام . اذ تدل كل كلمة على موضوع محدد مرتبط معها بصورة متينة . لهذا السبب يرد الانسان بالكلام مثلما يرد على المؤثر المباشر للموضوعات نفسها .
وبما أن الموضوعات هي عبارة عن اشارات أولية ، تقوم الكلمات التي تدل عليها بدور الإشارات الثانوية . انها ، كما كان يقول **بافلوف** : « اشارات الإشارات » .

ودعا الآلية الفيزيولوجية التي يرد الانسان بواسطتها بالكلام ، باللغة ، بنظام التأثير الثاني . والانسان هو الوحيد الذي يحوز على هذا النظام .

ويكون النظام الاول والثاني للتأشير مترابطين عضويا، مما يضمن للانسان معرفة كاملة وعميقة للواقع .

رأينا أن وعي الانسان يختلف نوعيا عن قدرات الحيوانات النفسية. فبأي شيء يكون اذا هذا الاختلاف مشروطا ؟

ان قدرات الحيوانات النفسية هي نتاج تطور بيولوجي فقط ، بينما وعي الانسان هو نتيجة التطور الاجتماعي والتاريخي . كما تتميز بصورة جذرية احساسات الانسان عن احساسات الحيوانات . فعين النسر ، مثلا ، ترى لمسافة أبعد بكثير مما ترى عين الانسان ، ولكن عين الانسان تميز أكثر بكثير من عين النسر .

وقد اعتبر ماركس أن تكون أعضاء الحواس الخمسة عند الانسان ، هو نتاج التاريخ الشامل: تطورت اذن الانسان الموسيقية ، وعينه القادرة على رؤية جمال الطبيعة ، وذوقه البارع وبقية أعضاء حواسه ، على أساس الممارسة العملية الاجتماعية خلال التاريخ .

اذن ، كان العمل ، نشاط الانتاج المادي ، العامل الحاسم في تكوين الانسان ، ونشوء وتطور وعيه . وقد قال **أنجلز** : لقد خلق العمل الانسان نفسه (١) . وبفضل العمل ، اكتسب الانسان البدائي مظهره الانساني فقدم له الطعام واللباس والمأوى،ولم يساعده

---

١ ـ انجلز ـ ديالكتيك الطبيعة .

فقط على الطبيعة ، بل أتاح لــه السيطــرة عليها .
وبالعمل أيضا ، غير الانسان نفسه كما غير سطــح
كوكبنا . والعمــل هــو أعظم تــراث للانسان ، وهو
الشرط الاول والاخير لحياته ولتطوره .

لقد كانت القردة الشبيهة بالانسان تعرف شيئا ما
يشبه العمل : استخدمــت ، لتحصل على طعامها ،
العصي والحجارة وأشياء أخرى وجدتها في الطبيعة .
ولكنها كانت تفعل ذلك بصورة عفوية ، دون وعــي :
اذ ليست القردة ، ولا بقية الحيوانات الاخرى ، قادرة
على صنع اية اداة عمل، مهما كانت بسيطة . امــا
الانسان ، فيستطيع صنع واستخدام أدوات الانتــاج
المختلفة ، وهذا ما يميز عمله نوعيا . لقد لزمه مئات
الالوف من السنين حتى تعلم صنعها ، والتي تمت خلالها
عملية تكوين الانسان ، ونشوء وتطور وعيه .

كان تبنــي القردة الشبيهــة بالانسان للوضعيــة
الشاقولية ، التي حررت أعضاءها الامامية مــن أجل
العمل ، شرطا جوهريا لظهور النشاط اليدوي، الخطوط
الاولى للوعي . لقد بدأ أسلافنا الاقدمون « باطالــة »
أيديهم ، بواسطة أدوات كانوا يصادفونها جاهــزة
بالقرب منهم ، في الطبيعة (عصي ــ حجارة) . ثــم
شيئا فشيئا ، بدأوا بصنعها بأنفسهم ، وذلك بتحويلهم
الموضوعات الطبيعية المناسبة .وكانت هذه الادوات،
في البدء ، بدائية جدا (حجارة منحوتة بصورة فظة ،
عصي مروسة . . . الخ) . كذلك كان وعي الانســان
البدائي متخلفا جدا أيضا . فلم يكن يميز بعد جوهــر
الموضوعات ، والشيء المشترك بينها ، كما كان يجهل

فائدتها له .

وفي اثناء تطور وتحسين العمل،كان الوعي يتطور ويتحسن . وبذلك حصل الإنسان علي وسائط الوجود، باصطدامه مع مواضيع الطبيعة ؛ كما تعلم معرفة خصائصها وتوضيح ما هو مشترك ومتكرر فيها .

لعب صنع وتحسين أدوات العمل دورا أساسيا في تطور الوعي . وكانت الادوات المنقولة من جيل الى جيل تحمل معها تجربة الإنسان ، المعارف . وهكذا كانت الاجيال الجديدة تتمكن من تحسين وتطوير طرق صنع واستخدام الادوات التي ورثوها عن أجدادهم .

لقد كان وعي الانسان البدائي مرتبطا بعمله بصورة عضوية ، وكان يتشابك ، اذا أمكن القول ، في نشاطه اليدوي . ولم يتطور ويتحسن وعي الانسان الا من خلال وحدة العمل والتفكير ، وعلى أساس نشاطه اليدوي .

التفكير واللغة

لعبت اللغة دورا هاما في تكوين الوعي الإنساني . وكانت اللغة ، التي نشأت مع الوعي ، قوة كبيرة ساعدت الإنسان علي الإنفصال عن مملكة الحيوان ، وعلى تطوير فكره وتنظيم الإنتاج المادي . والعمل كان دائما اجتماعيا . فقد كان الناس ، منذ أيامهم الاولى ، مرغمين على النضال بصورة مشتركة ضد قوى الطبيعة، وعلى كسب وسائل الحياة الضرورية منها ، بصورة مشتركة أيضا . لهذا السبب ، نشأت حاجتهم للاتصال وللحديث أثناء العمل . وتحت تأثير هذه الحاجة الملحة،

اصبحت حنجرة القرود عضوا قادرا على ارسال الاصوات النطقية . وكانت اللغة ، الكلام .

وحسب **ماركس**، اللغة هي الواقع المباشر للفكرة ... وذلك لان الفكرة لا يمكن أن توجد الا في غلاف الكلام المادي . ويفكر الانسان لذاته ، ويعبر عن أفكاره بصوت مرتفع أو يعرضها كتابيا ، اذن يتخذ تفكيره دائما شكل الكلام .. وبفضل اللغة ، تتكون الافكار وتنقل وتدرك . وبواسطة الكلمات والجمل ، يثبت الانسان في وعيه نتائج انعكاس العالم الموضوعي ، مما يتيح له تبادل الافكار بينه وبين بقية أناس جيله ونقلها الى جيل آخر . ولولا الكلام والكتابة ، التجربة الثمينة لاجيال عديدة ، لكان على الاجيال الجديدة اعادة العمل في دراسة العالم .

ان الكلام مرتبط بالواقع عن طريق الفكرة · لهذا السبب ، كان من الصعب اقامة اتصال مباشر لكلمة مع الموضوعات المادية الملموسة . فأحيانا يمكن أن تدل كلمة واحدة في مختلف اللغات وحتى في اللغة نفسها ، على عدة موضوعات، ويحدث العكس أحيانا أي موضوع واحد يدل عليه بعدة كلمات . لذا ، فمن المستحيل أن يكون الكلام مستقلا عن الواقع .

وهذا ما يستغله ممثلو المثالية الدلالية sèmantique ، الاتجاه الفلسفي البرجوازي الحديث . اذ يفصلون اللغة عن التفكير ، والتفكير عن الواقع . ويدعون أن الانسان يكون الكلمات كيفيا ، وأنها ، أي هذه الكلمات ، لا تمثل شيئا من الواقع ، بل ليست

سوى تركيبات صوتية بسيطة . كما يحاول البعض منهم أن يثبت أن الرأسمالية الحالية ، والاستغلال والعدوان والحروب ليست سوى كلمات ، سوى أصوات جوفاء ، وانه يكفي ابدالها بكلمات أخرى لتزول كل مصادر النزاعات الاجتماعية ، ولتختفي كل مصائب الرأسمالية المعاصرة .

اذ في الحقيقة ، لا يكون الناس الكلمات كيفيا . انما تعطي للموضوعات والظواهر كلما عرفها الانسان واصطدم معها في نشاط ممارسته العملية . ولا يمكن أن يغير ابدال الكلمات بأخرى العمليات الموضوعية أو أن يزيلها . ولقد ابتدع ممثلو الرأسمالية عشرات الكلمات الطنانة للدلالة على النظام الرأسمالي : « الرأسمالية الشعبية » ، « اقتصاد العمل » ، « الانسية الاقتصادية»، ٠٠ الخ ٠ ومع ذلك لم تختف الرأسمالية، ولا البطالة ، ولا الاستغلال ، ولا الصراعات الطبقية . ولن تزول الرأسمالية الا بفضل صراع البروليتاريا ضد البرجوازية ، وبفضل الثورة الاشتراكية .

اذن ، فالوعي هو نتاج تطور المادة ، الذي يؤثر عليها بالمقابل بصورة نشيطة٠ويطعن المثاليون بالمادية، اكدوا أنه طالما يعلم الماديون موضوعية العالم ، واستقلاليته بالنسبة للوعي ، متخذين من المادة أساسا لكل ما هو موجود ، فانهم ينتقصون من دور الوعي ، ويعتبرونه انعكاسا سلبيا وجامدا للعالم .

ولكن في الحقيقة ، لا تنتقص المادية الديالكتيكية من دور الوعي في تطور المادة والوجود . وبكونه نتاج

المادة وانعكاسها ، لا يبقى الوعي سلبيا ، بل يؤثر في العالم بنشاط . وقال لينين في هذا الخصوص :

« لا يعكس الوعي الانساني العالم الموضوعي فقط ، بل يخلقه أيضا . » (١)

وبالتأكيد ، لم يعن لينين بتأثير الوعي المباشر على المادة أو خلق الوعي الانساني للعالم : اذ أن الفكرة عاجزة بمفردها عن تحريك أدنى شيء . واذا ما عكس الوعي العالم بأمانة ، فيكون بذلك دليلا ومرشدا في النشاط المبدع والمغير للانسان .

---

١ ـ لينين ـ دفاتر فلسفية .

الفصل الثالث

الديالكتيك الماركسي :

تفسير التطور والارتباط الشامل

المادية الديالكتيكية هي فلسفة الماركسية ، والمادية والديالكتيك لا ينفصلان عن بعضهما . ولقد أوضحنا ، في الفصول السابقة، جوهر المادية الماركسيةالفلسفية. وسنوضح الآن ، بصورة مفصلة ، ماهية الديالكتيك المادي الماركسي ، وما هو مداه العملي .

١ ـ الديالكتيك نظرية الصيرورة المستمرة (التطور)

يعتبر الديالكتيك الماركسي العالم أنه متحرك باستمرار ومتغير ومتطور . كما تقنعنا التجربة اليومية وتطور العلم والممارسة العملية الاجتماعية بأن كل الموضوعات والظواهر تتغير ولا تبقى على حالها .

كل شيء يتطور . فكل الاجسام الكونية التي لا تحصى ، والنظام الشمسي ، والارض ، وكل ما يوجد عليها ، هي نتيجة تطور المادة الطويل. والانسان ، كما نعلم ، نتاج الطبيعة الاكثر كمالا ، وقد ولد من خلال تطور العالم المادي .

وكذلك ، يتطور المجتمع البشري . وعصرنا ، عصر التقدم التاريخي ، وعصر التحولات الاجتماعية التي لا مثيل لها ، لهو افضل دليل على ذلك . وسينهار النظام الرأسمالي ، ويحل محله نظام جديد ، المجتمع الشيوعي . ولقد قام عالم اشتراكي ، بصورة نهائية ، على قسم كبير من كوكبنا . وما زال ينمو ويتوطد

ويقوى، مظهرا دائما أفضلياته وامكانياته غير المحدودة. ويعمل على تصدع النظام الاستعماري للامبريالية . وها هي الشعوب ، الواحد تلو الاخر ، تحوز على استقلالها بعد صراع شرس ضد الاستعمار .

والان تتحقق ثورة كبرى في العلوم التقنية . فلقد غاص الانسان في أعماق الذرة وسيطر على قواها . وها هي آخر اكتشافات الفضاء الكوني تثبت قوة العقل البشري ، بصورة لا جدال فيها . وفي الوقت نفسه ، يتغير وعي الانسان وأفكاره ونظرياته وآرائه التي تعكس تطور العالم المادي .

ان التطور المستمر للموضوعات والظواهر ، وانتقالها من حالة الى أخرى ، هو أحدى الخصائص الهامة للعالم المادي . لذلك ، فمن أجل معرفة الموضوعات والظواهر ، يجب قبل كل شيء دراسة تطورها وتغيراتها المستمرة . ولمعرفة الموضوع بصورة حقيقية ، يجب الاخذ بعين الاعتبار تطوره وحركته وصيرورته .

ودراسة اللوحة العامة لتطور العالم هي من أهم مهام الديالكتيك الماركسي . وقد قال **انجلز** :

« الديالكتيك هو نظرية القوانين الشاملة لحركة وتطور الطبيعة والمجتمع البشري والتفكير » (١)

---

١ ـ فريدريك انجلز ـ ضد دوهرينغ .

كيف يدرك الديالكتيك الماركسي عملية التطور ؟

يعتبر الديالكتيك الماركسي عملية التطور حركة من الاسفل الى الاعلى ، من البسيط الى المعقد ، يعتبرها عملية ثورية تتم على قفزات ، وليس على شكل دارة مغلقة ، بل بشكل لولبي بحيث تكون كل لولبة أكثر عمقا ، وأكثر غنى ، وأكثر تعقيدا من سابقاتها . ويكمن أصل التطور ، في نظر الديالكتيك ، في التناقضات الملازمة للموضوعات والظواهر . والديالكتيك الماركسي هو الوحيد الذي يقدم مفهوما حقيقيا وعلميا لحركة العالم.

ولقد أعطت القوانين الاساسية للديالكتيك المادي الحركة وطريقة معرفتها وتفسيرها . فهذا قانون وحدة وصراع الاضداد يقوم بالكشف عن أصول التطور والقوى المحركة له . ويشمل قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية ، التغيرات الثورية ، بقفزات ، للعالم ، أي التحول المستمر للتغيرات الكمية ، الملازمة للموضوعات ، الى تغيرات نوعية وجذرية . ويعني قانون نفي النفي تطور الظاهرة ، وانتقالها الى درجة جديدة أعلى . وسنأتي على دراسة هذه القوانين في فصل قادم .

الجديد لا يقهر .

ان تطور العالم المادي هو عملية مستمرة من اضمحلال القديم وولادة الجديد . فتاريخ القشرة الارضية ، مثلا ، هو تاريخ تغير البنية الجيولوجية المتجددة باستمرار . وفي عالم النبات والحيوان ، تفسح الاشكال العضوية القديمة المكان للاشكال الجديدة ،

الاكثر كمالا . وكما تموت الخلايا القديمة ، في الاجسام الحية ، وينشأ عوضا عنها خلايا جديدة ، تزول ، في المجتمع ، الاشكال الاجتماعية القديمة ويحل محلها أشكال جديدة أكثر تقدمية .

وبالتالي ، يحل باستمرار ما هو جديد وتقدمي محل القديم دون أن يتمكن أحد من منعه من ذلك . اذا ، فسمة الجديد الذي لا يقهر هي خاصة هامة جدا للطبيعة والمجتمع والفكر .

غير ان الديالكتيك الماركسي لا يقصد بجديد وحقيقي في آن واحد كل ظاهرة تظهر ، وكل ما يحاول أن يظهر بصفة الجديد . كان الفاشيون الالمان ، مثلا ، يعتبرون النظام الدموي الذي فرضوه على أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية « نظاما جديدا » في حين كانوا يخفون جرائمهم تحت الشعار الكاذب : « الاشتراكية الوطنية » . لقد كان هذا الجديد رجعيا ، لا حياة له ، أمام محن الزمن ، فانهار تحت ضربات الشعوب المحبة للحرية .

الجديد هو التقدمي والاكثر كمالا والقابل للحياة ، هو الذي ينمو ويتطور دون توقف . يكون في البدء ضعيفا نسبيا ، ويكاد يدرك أحيانا ، بينما يهيمن القديم ويبدو انه لا يقهر . غير انه يفنى وينهار ، في حين ينمو الجديد ويتطور وينتصر بعد صراع شاق . ظهرت الحركة العمالية الروسية كقوة ، في نهاية القرن التاسع عشر . وكانت ضعيفة بالمقارنة مع قوى الاوتوقراطية والبرجوازية . ولكنها نمت وتطورت وخاضت المعارك

الطبقية ، وانتصرت أخيرا على القيصرية والبرجوازية.
لماذا لا يقهر الجديد ؟

لا يقهر ، لانه ولد ، قبل كل شيء ، من مسيرة تطور الواقع بشكل ملائم بصورة أفضل للظروف الموضوعية. ونعلم مثلا ، انه في عهود قديمة جدا كانت منتشرة على سطح الارض نباتات تعرف بعاريات البذرة . وظهرت بعدها نباتات تلاءمت بصورة أفضل مع الوسط ، اذ أعطت بذرتها حماية ضد تقلبات الزمان . وبحصولها على هذه الميزة المتفوقة ، أبعدت نهائيا الانواع القديمة، وانتشرت بسرعة لتغير كل مظهر عالم النبات .

وتظهر بجلاء حصانة الجديد في التطور الاجتماعي . فينتصر الجديد ، في المجتمع ، لانه يستجيب لحاجات الحياة الاقتصادية ، والانتاج المادي . ويتغلب النظام الاشتراكي على النظام الرأسمالي لانه يسمح بتطور القوى المنتجة، بقضائه على الملكية الخاصةالرأسمالية.

أن الجديد يلائم مصالح الطبقات التقدمية ، المتقدمة من المجتمع ، التي تناضل بثبات من أجل انتصارها .

وعندما نقول أن الجديد لا يقهر ، لا يعني ذلك أن انتصاره يتحقق لوحده ، وبصورة آلية . اذ يجب العمل والنضال بضراوة من أجل ذلك . ويعود الدور الحاسم في انتصار الجديد على القديم الى النشاط الواعي للشعوب ، وللطبقات الطليعية والاحزاب التقدمية .

٢ ـ الديالكتيك : نظرية الارتباط الشامل .

لا يكفي القول بأن العالم يتطور ، بل يجب الاشارة أيضا

الى انه يشكل كلا واحدا ومتلازما . وأن عناصره لا تتطور بصورة منعزلة ، بل هي على اتصال مع بعضها البعض . وتؤثر على بعضها بصورة متبادلة .

وهكذا ، تشكل عدة جسيمات بسيطة متفاعلة مع بعضها الذرات ، التي تكون مترابطة مع بعضها أيضا . اذ تشكل مجتمعة الجزيئات ، وهذه مجتمعة بدورها الاجسام المرئية . ويعبر عن تفاعل الاجسام المرئية بقانون الجاذبية ، الذي تكون الارض بموجبه مرتبطة بالشمس وببقية النظام الشمسي ، وهذه مع تشكيلات كونية أخرى .

وتكون الاجسام الحية متحدة بسلسلة معقدة من التفاعلات : تشكل النباتات والحيوانات الانواع ، التي تجتمع في زمر ، وفي فصائل ، ... الخ . كما تكون متحدة أيضا مع الوسط الذي تتلقى منه المواد الغذائية والطاقة الضرورية لها .

وكشف العالم الروسي كليمان تيمير يازيف (١٨٤٣ـ ١٩٢٠) Cièment Timiriazeu آلية ارتباط النباتات مع طاقة الشمس الباعثة للحياة . وأثبت أنه بتأثير هذه الطاقة يتم في كلوروفيل أوراق النباتات الخضراء عملية تحلل أكسيد الفحم . فتتمثل الفحم ، بينما ينطلق الاكسجين ، الضروري جدا لتنفس الانسان والحيوان ، الى الجو . وتمركز المواد العضويةالمتشكلة فيها طاقة الشمس تحت شكل طاقة كيماوية يستخدمها الآنسان عندما يأكل النباتاتاو عندما يستخدمهاللتدفئة . وقد كتب تيمير يازيف يقول : ان الورقة الخضراء ، أو

بشكل أدق ، بذرة الكلوروفيل الخضراء غير المرئية ، هي مصدر الطاقة، هي مركز التبادل في الفضاء الكوني، الذي يأخذ طاقة الشمس ويعطي أولويات كل مظاهر الحياة على الارض. النبات كل صلة الوصل بين السماء والارض . انه حقيقة بروموتي premothèe الذي سرق النار من السماء . ان شعاع الشمس الذي سرقه يشتعل في قطع الخشب المترنحة وفي الشرارة الكهربائية البراقة .كما يحرك دولاب الالات البخارية الهائلة ، وريشة الشاعر وريشة الرسام .

والانسان مرتبط بالطبيعة بواسطة الانتاج المادي . والعمل ، والشرط الاول والاخير لوجود الانسانية ، هو شكل هذا الارتباط . فبفضله ، يحصل الانسان من الطبيعة على الخيرات المادية التي يحتاج اليها . وتتكون من خلال العمل علاقات الانتاج الاقتصادية بين الناس ، التي على اساسها تتشكل علاقات اخرى : سياسية أخلاقية وقانونية .

وهكذا ، فان الارتباط الشامل للموضوعات والظواهر وترابطها الداخلي هي احدى السمات الهامة للعالم المادي . لذلك ، ومن اجل معرفة موضوع ما بشكل حقيقي ، يجب دراسة كل مظاهره وكل ارتباطاته . ومهمة الديالكتيك المادي هي دراسة العالم في كونه كلا واحدا متلازما وتحليل ارتباطات الاشياء الشاملة .

وكما أن أحداث وموضوعات العالم المادي متنوعة ، كذلك فان ارتباطاتها وتفاعلاتها عديدة أيضا . ولا يدرس الديالكتيك الماركسي كل الارتباطات ، بل فقط الاكثر

شمولا ، تلك التي نجدها في كل مجالات العالم المادي والعالم الروحي .

وتعكس قوانين ومقولات الديالكتيك هذه الارتباطات في وعي الانسان . ولمعرفة الارتباطات أهمية كبيرة : اذ باكتشافها يتعلم الناس معرفة قوانين العالم الموضوعي. ومعرفة القوانين شرط ضروري لنشاط الممارسة العملية . وتقضي مهمة العلوم معرفة القوانين ووضعها موضع التطبيق .

مفهوم القانون

تنظم عدة قوانين العالم الموضوعي : قوانين الطبيعة غير العضوية والعالم العضوي والمجتمع والتفكير . غير انه ، لقوانين كل مجال من الواقع، سماتا مشتركة تتحدد في اطار المفهوم الفلسفي للقانون . فما هي اذا هذه السمات ؟

القانون هو قبل كل شيء علاقة ، أي ارتباط بين الموضوعات المتطورة أو مظاهر هذه الموضوعات . ولكن القانون ليس أي ارتباط ، أنه علاقة ثابتة تتكرر ، تميز اعدادا كبيرة من الموضوعات والظواهر . فمثلا ، يميز قانون تعادل الكتلة والطاقة ، الذي ذكرناه ، ترابط الكتلة والطاقة بعدد كبير من الاجسام الفيزيائية . وينص قانون التناوب **periodique** الذي اكتشفه ديمتري ماندلييف (١٨٣٤ — ١٩٠٧) **Dinutri Mendèleèv** — أن خواص كل العناصر الكيماوية تتعلق بكبر الشحنة الموجبة للنواة . وبالتالي ، فان القانون ليس أي ارتباط ، بل ارتباط شامل بين الظواهر . وقد

كتب **انجلز** يقول : القانون هو شكل الشمولية في الطبيعة .

ومن جهة أخرى ، لا يمثل القانون أية علاقاتمتكررة، بل تلك التي تتصف بخاصة ضرورية وجوهرية . فيميز قانون تعادل الكتلة والطاقة العلاقة بين صفات الاجسام الفيزيائية الهامة جدا وغير القابلة للتغير، مثل كتلتها وطاقتها . وينظم القانون البيولوجي للتفاعل بينالجسم الحي والوسط ارتباط وصلة الجسم وظروف وجوده .

وعلى الرغم من ضرورته وجوهريته للموضوعات والظواهر ، لا يقوم القانون بدوره الا اذا توفرت له بعض الشروط ، فيملي على الاحداث اتجاها محددا . وتتخذ خاصة عمل القوانين المحددة أهمية كبرى عملية: يتمكن الانسان من رؤية المستقبل اذا ما عرف القوانين واتجاه التطور . فيستطيع الانسان ، مثلا ، عندما يعرف القوانين التي يتطور المجتمع بمقتضاها والشروط التي تطبق فيها هذه القوانين ، أن يدرك مسيرة الاحداث التاريخية .

اذن ، فالقانونهو ارتباط جوهري وضروريوشامل، يتكرر بين ظواهر العالم المادي ، ويملي على الاحداث اتجاها محددا بصورة تامة .

ان مسألة طبيعة القوانين تفصل ، منذ زمن طويل، بين المادية والمثالية . فيعتبر المثاليون أن الانسان أو « الفكرة المطلقة » ، « الروح الشاملة » ، هو الذي يخلق القوانين . أي أن وجهة نظرهم تقضي بالاقرار بالجوهر الالهي للقوانين . فيؤكد ، مثلا ، الفيلسوف

الاميركي المعاصر برايمن **Brightman** أن كل قانون هو قانون الهي ، وأن كل قوة في الطبيعة هـي عمل الهـي .

وعلى عكس المثالية، تقر المادية الديالكتيكية بالخاصة الموضوعية للقوانين . والانسان عاجز عن خلق أو تغيير القوانين وفق هواه ، ولا يستطيع الا التعرف عليها والقيام بعكسها . وقد كتب **لينين** يقول :

« العالم هو حركة المادة التي تنظمها القوانين ، ولا يستطيع وعينا ، نتاج الطبيعة الاعلى ، الا عكس هذه القوانين ».

ومن جهة أخرى ، نعني بموضوعية القوانين أنها تعمل بصورة مستقلة عن ارادة ورغبة الانسان ، اذا ، فان الفشل سيكون نصيب كل محاولة لعرقلة القوانين . فلا نستطيع ، مثلا ، التحليق في الفضاء الكوني ، دون الخضوع لقانون الجاذبية الكونية ، ودون التغلب على **قوة الجاذبية الارضية . كما لا يمكننا تجاهل قوانين** التطور الاجتماعي . ودليل ذلك ، فشل محاولات الامبرياليين اليائسة في ايقاف عملية تحطيم النظام الاستعماري المحتومة .

وبمناقضتها للمفهوم المثالي للقوانين ، ترفض المادية الديالكتيكية أيضا القدرية ، أي الايمان الاعمى بالقوانين ، وغياب الثقة في قوة العقل ، بل تقر في قدرة الانسان على فهم واستخدام القوانين . والانسان ليس حرا في خلق أو ازالة القوانين ، بل يستطيع معرفتها واستخدامها في ممارسة نشاطه العملي . والانسان ، متسلحا بمعرفته لقوانين الطبيعة ، لا يكتفي بعمل

عناصر الطبيعة المدمرة ، مثل الماء والهواء ، بل يسعى دائما لترويضها : يروي الحقول ، يحرك توربينات مراكز توليد الطاقة الكهربائية ... الخ . وبالتالي يغير الحياة في المجتمع .

وفي النظام الاشتراكي ، تتوفر الظروف الملائمة لمعرفة وتطبيق القوانين ، حيث يتلاءم عمل قوانين تطور المجتمع مع مصالح الشعب بأسره ، وحيث تستخدم الثروات الطبيعية بشكل مخطط ، وعلى أساس ملكيتها الاشتراكية ، وحيث يتم تحسين العلاقات الاجتماعية . ولنأخذ ، مثلا ، قانون التطور المتناسق لاقتصاد بلد اشتراكي . فطالما أن الانتاج الاشتراكي لا يمكن له أن يتطور دون تخطيط ، لذا كان من المفروض أن نعرف هذا القانون ونطبقه . ومن جهة أخرى ينسجم هذا القانون بصورة كاملة مع مصالح العمال ، لان الانتاج الاشتراكي يتطور ليستجيب بشكل متكامل لحاجاتهم المادية والثقافية المتزايدة . لذلك ، يهتم العمال في معرفة هذا القانون ووضعه في خدمتهم .

الفصل الرابع

القوانين الاساسية للديالكتيك الماركسي

الديالكتيك الماركسي ، كما نعلم ، هو نظرية تطور وترابط كل شيء . ولكن المهم في التطور هو مسألة اصله وقواه المحركة ، التي يحلها قانون وحدة وصراع الاضداد ، الذي نبدأ به دراسة القوانين الاساسية للديالكتيك الماركسي .

قانون وحدة وصراع الاضداد

لقد دعا **لينين** هذا القانون **بجوهر ونواة الديالكتيك.** لانه يوضح الاصول والاسباب العميقة لحركة وتطور العالم المادي السرمديتين. لذا يجب معرفة هذا القانون لفهم ديالكتيك تطور الطبيعة ، والمجتمع والتفكير ، ولقيادة العمل العلمي والنشاط الثوري العملي بشكل ناجح .

ويتطلب كل بحث علمي وكل نشاط عملي أن نحلل تناقضات العالم الموضوعي وأن نعرف طبيعتها .

١ ــ وحدة وصراع الاضداد :

قبل الحديث عن هذا القانون ، لندرس كيف يفهم الديالكتيك الماركسي ــ اللينيني تناقض ووحدة الاضداد .

وحدة الاضداد

استخدم كل منا مغناطيسا عاديا اكثر من مرة

وعلم إن لهذا المغناطيس قطبين : القطب الشمالي والقطب الجنوبي المتنافرين باستمرار ، والمرتبطين ،في آن واحد ، مع بعضهما بصورة متينة . واذا ما حاولنا فصلهما عن بعضهما ، فلن ننجح أبدا ، اذ أننا سنحصل دائما على قطبين ، مهما جزأناه .

والاضداد هي المظاهر الداخلية ، هي اتجاهات وقوى الموضوع المتنافرة والتي تتطلب بعضها البعض، في الوقت نفسه . ويشكل الترابط الداخلي غير المنفصل لهذه المظاهر وحدة الاضداد .

وتوجد هذه المظاهر المتناقضة في كل الموضوعات والظواهر . لانها تشكل ارتباط الاضداد العضوي ووحدتها التي لا تنفصل . فتمثل الجسيمات البسيطة ، مثلا ، الوحدة المتناقضة للخواص المتموجة والجسيمية . ولا تكون الجسيمات فقط في حالة تناقض ، بل أيضا الذرة التي تشكلها . اذ يوجد في مركزها نواة ذات شحنة موجبة ، في حين يدور حولها الكترون واحد أو أكثر ذو شحنة سالبة . وتعتبر أيضا العملية الكيماوية الوحدة المتناقضة لاتحاد وانفصال الذرات .

وتحتوي الاجسام الحية أيضا على تناقضات . فالى جانب العمليات المتناقضة في الاتحاد والانفصال ، الاستقلابات الخاصة بالحياة ، تتصف الاجسام الحية بخصائص متناقضة ، مثل الوراثة والتلاؤم (التأقلم) . الوراثة هي اتجاه الجسم في المحافظة على خواصه المكتسبة ، بينما التلاؤم هو قدرة الجسم على صياغة خواص أخرى جديدة تتناسب مع الظروف الجديدة .

وتعرف نفسية الانسان أيضا عمليات متناقضة : الاثارة والكبت ، تمركز وانتشار الاثارات في قشرة نصفي كرة الدماغ المميز لنشاط الانسان النفسي .

وتتكون المجتمعات الطبقية المتناحرة من طبقات متناقضة . العبيد ومالكي العبيد في مجتمعات الرق ، الاقنان والاقطاعيين في المجتمع الاقطاعي، البروليتاريين والبرجوازيين في النظام الرأسمالي . ومن جهة أخرى، فانه من الضروري معرفة هذه الجوانب المتناقضة .

والانسان في طرق بحثه يستخدم متناقضات ولكنها مرتبطة دائما ، مثل الاستقراء والاستنتاج والتحليل والتركيب ،... الخ .

وهكذا ، تصبح الخاصة المتناقضة للموضوعات والظواهر عامة وشاملة ، فلا توجد ولا يمكن أن توجد موضوعات وظواهر لا تحتوي على خواص متناقضة .

والتناقضات لا تتنافر فقط بل تتلازم أيضا بالضرورة مع بعضها فتعيش في الموضوع ذاته أو في الظاهرة نفسها ، ولا يمكن ادراك احداها دون نقيضها . ولقد تحدثنا عن الوحدة الوثقى لقطبي المغناطيس المتنافرين، وعن التمثل وتضاد التمثل في الجسم الحي ، وعن التحليل والتركيب في عملية المعرفة . وكذلك ، لا يمكن للمجتمع البرجوازي أن يوجد دون طبقات متعارضة ، البروليتاريا والبرجوازية . وستتمكن البروليتاريا بالتأكيد ، بالثورة الاشتراكية ، من القضاء على البرجوازية كطبقة ، وتحل محلها في قيادة المجتمع . ولكن طالما الرأسمالية موجودة ، لن يتمكن العامل من

العيش دون أن يعمل للرأسمالية التي تستغله . وقد كتب **انجلز** يقول :

« لا يمكن ان يوجد احد عنصري التناقض دون الاخر ، كما لا يمكن ان يكون في يدنا تفاحة كاملة بعد ان نكون قد اكلنا نصفها · » (١)

صراع الاضداد هو مصدر التطور

لقد ذكرنا أن الموضوعات والظواهر تحتوي على وحدة الاضداد . فما هي خاصة هذه الوحدة ؟ وهل يتعايش الاضداد ، بصورة سلمية ، داخل هذه الوحدة أو تكون في تناقض وتناحر فيما بينها ؟

يثبت تطور مختلف الموضوعات والظواهر على عدم امكانية تعايش المظاهر المتناقضة ، بصورة سلمية ، في الموضوع الواحد نفسه ، اذ تفرض بالضرورة طبيعة الاضداد المتناقضة صراعا فيما بينها . فيتصارع القديم مع الجديد ، الذي يولد مع الذي يموت . اذا ينشأ تطور المادة والوعي من التناقض ، من صراع الاضداد . وقد قال **لينين** :

« التطور هو صراع الإضداد » (٢)

كما اشار الى ان صراعها مطلق، كما ان التطور (الحركة) مطلق ·

---

١ ـ فريدريك انجلز ـ اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ·

٢ ـ لينين : ماركس انجلز ـ الماركسية ·

وبتأكيدنا على ان صراع الاضداد هو الذي يقوم بالدور الحاسم في التطور ، لا نعني مطلقا اننا نقلل من دور وحدتها · فوحدتها هي الشرط الاول والاخير للصراع · لانه لا يوجد الا حيث تتعايش المظاهر المتناقضة في الموضوع والظاهرة ذاتها · ولقد اشار لينين الى امكانية وجود توازن مؤقت بين الاضداد ، توازن يجب فهمه كمرحلة مؤقتة في التطور ، اي لا يسيطر فيها أي حد من الحدود المتناقضة . ومثال ذلك ، حالة روسيا في تشرين الاول عام ١٩٠٥ ، اذ لم تستطع القيصرية ان تنتصر في تلك الفترة ، وكذلك كان حال الثورة التي لم يكن لديها القوى الكافية لتحقيق النصر . كما حدث توازن أيضا ، بين شباط وحزيران من عام ١٩١٧ ، بين قوى البرجوازية والاقطاعية من جهة ، وبين العمال والفلاحين من جهة أخرى . ولكن كان توازن القوى المتناحرة آنيا ، في كلا الحالتين . ففي العام ١٩٠٥ ، انتصرت القوى الرجعية ، بينما انتصرت البروليتاريا وحلفاؤها في العام ١٩١٧ .

ان توازن الاضداد نسبي دائما · ولا يمكن ان يكون غير ذلك : فلو كان ثابتا وسرمديا ، لما تطور العالم ابدا · والصراع هو مصدر التطور الوحيد ، انه قوته المحركة .

وينادي كثيرون من ممثلي الفلسفة البرجوازية المعاصرة ، وهم يشوهون الجوهر الثوري لنواة الديالكتيك الماركسي ، بتوازن الاضداد المطلق ، مع رفضهم لتناقضها . فبرأيهم ، لا يكمن الجوهر في صراع الاضداد ، بل في توافقها ، في توازنها . وهكذا يحاول

ايديولوجيو البرجوازية توفيق مصالح البرجوازية مع البروليتاريا ، بحرف الجماهير الشعبية عن اتجاهها في حل تناقضات الرأسمالية العميقة بصورة ثورية .

ولكن ، في الحقيقة ، لا يمكن التوفيق بين التناقضات الطبقية، وقد أثبت ذلك تاريخ الانسانية كله ،والممارسة العملية لنضال الطبقة العاملة الثوري . كما اكد لنا أيضا تطور العلم والممارسة العملية الاجتماعية أن صراع الاضداد هو مصدر التطور .

ولكن لا ننسى ان هذا الصراع يظهر بصورة مختلفة وفقا لمجالات الواقع المادي . ففي الطبيعة غير العضوية يظهر صراع القوى المتناقضة ، مثل الجذب والدفع . ويكون تفاعل القوى الميكانيكية والكهربائية والنووية ، وقوى جذب ودفع أخرى ، هاما جداً من أجل نشوء ووجود النوى الذرية ، والذرات والجزيئات . وكان صراع هذه القوى، حسب النظريات النشكونية الحديثة، أصل النظام الشمسي .

واظهر علم الفلك الحديث بأن تفاعل الجذب والدفع، هو أحد أهم مختلف العمليات التي تجري في الكون . ففي نقاط الكون كلها ، لا تكون هذه القوى في توازن مطلق ، اذ تسيطر بالضرورة واحدة منها . فاذا سيطرت قوة الدفع ، تفتقت المادة وتجزأت الطاقة وانطفأت النجوم . واذا سيطرت قوة الجذب ، تمركزت المادة والطاقة واضيئت نجوم جديدة . وعلى هذه الصورة تتحقق ، خلال الصراع ، خلال تفاعل هذه القوى المتناقضة، حركة المادة والطاقة السرمدية .

لقد أشرنا فيما تقدم الى أن العمليات المتناقضة للتمثل

وتضاد التمثل ملازمة للاجسام الحية . وأن تناقضهـا وتفاعلها هو الاصل النوعي لتطور الجسم الحي . ولا يمكن أن توجد هذه العمليات المتناقضة في توازن مطلق، اذ ستنتصر احداها بالضرورة . فها هو التمثل ينتصر في الجسم الفتي ، فيحدث نمو وتطور . ويهرم الجسم ويفنى عندما ينتصر تضاد التمثل . غير ان هذه العمليات تؤثر على بعضها ، في أي جسم كان . لان تفاعلهـا ، تناقضها هو الذي يشكل الحياة . وتتوقف الحياة عندما يتوقف هذا التناقض ، انه الموت .

ويجري التطور الاجتماعي كذلك على اساس وحدة وصراع الاضداد . وتقوم تناقضات الانتاج المـادي ، وبشكل خاص ، التناقضات بين القوى المنتجة وعلاقات الانتاج ، بالدور الهام في هذا التطور . ويعبر عنه ، في مجتمع طبقي متناحر ، بالصراع بين الطبقات المتعادية، الذي يؤدي الى الثورة الاشتراكية ، الى ابدال النظام الاجتماعي البالي بنظام آخر جديد .

وهكذا ، تحتوي الموضوعات والظواهر على مظهرين متعارضين يمثلان وحدة الاضداد . ولا تتعايش فقط هذه التناقضات ، بل تكون في صراع ، في تناقض دائم . ان صراع الاضداد هو المضمون الداخلي ، هو مصدر تطور الواقع .

هذا هو جوهر القانون الديالكتيكي لوحدة وصـراع الاضداد .

٢ أنواع التناقضات

تتناقض في العالم اعـداد من التناقضات المتنوعة

ونتصادم معها باستمرار في كل يوم . وتهتم بها مختلف العلوم. وعلى خلاف العلوم الاخرى، يدرس الديالكتيك الماركسي التناقضات الاكثر شمولية. وبالتحليل نحصل على مجموعات كبيرة وهامة من التناقضات : داخلية وخارجية ، تناحرية وغير تناحرية ، رئيسية وثانوية .

التناقضات الداخلية والخارجية .

يتطلب الديالكتيك الماركسي قبل كل شيء أن نميز التناقضات الداخلية عن التناقضات الخارجية .

التناقضات الداخلية هي تفاعل ، صراع الجوانب المتعارضة في موضوع معين، اما التناقضات الخارجية فهي العلاقات المتناقضة للموضوع المعين مع الوسط المحيط ، أي مع موضوعات هذا الوسط .

يشوه أعداء الديالكتيك الماركسي دور مختلف مجموعات التناقضات في التطور. فينفون المدى الحاسم للتناقضات الداخلية ويعتبرون ان التناقضات الخارجية هي المصدر الوحيد للتطور. فمثلا ، لا يعتبرون صراع الطبقات أصل تطور المجتمع الطبقي ، بل تناقض المجتمع والطبيعة . اذ يرفضون أن يدركوا أن العلاقات بين الانسان والطبيعة ، أي درجة سيطرة الانسان على الطبيعة ، تتعلق بالعلاقات الطبقية داخل المجتمع، تتعلق بخاصة النظام الاجتماعي .

ونجد في آن واحد ، في الموضوعات والظواهر المادية للواقع تناقضات داخلية وخارجية . بينما التي تهم هي تناقضات الموضوع الداخلية . لانها قبل كل شيء أصل الحركة . وهكذا ، يدرك الديالكتيك الماركسي الحركة

مثل حركة ذاتية للمادة ، مثل حركة داخلية بحيث تعود محرضاتها وأسبابها الى الموضوعات والظواهر المتطورة .

ولا يأتي التفاعل ، صراع ميزات المادة التموجية والجسمانية ، وصراع قوى الجذب والدفع، صراع قوى التمثل وتضاد التمثل وبقية الاضداد الاخرى ، التي تحدثنا عنها على أنها مصادر التطور في مختلف مجالات الواقع ، لا تأتي من الخارج ، بل تكون ملازمة للموضوعات والظواهر .

والتناقضات الداخلية هي أصل التطور الذي يحدد مظهر الموضوع وطبيعته . وبدون هذه التناقضات، لما كان الموضوع ما هو عليه . ولما وجدت الذرة ، مثلا ، دون تفاعل ، دون صراع النواة ذات الشحنة الموجبة مع الالكترونات ذات الشحنة السالبة ، ولما عاش الجسم دون التمثل وتضاد التمثل ... الخ .

وتعود كل التأثيرات الخارجية على التناقضات الداخلية للموضوع ويظهر هنا ايضا دورها الحاسم في التطور . وكل تغير في الوسط يعطي دفعا لتطور الاجسام الحية . ولكن اتجاه التطور ونتائجه يتعلقان ، نهائيا ، بعملية الاستقلاب الخاصة بالجسم ، أي بتفاعل التمثل وتضاد التمثل .

ويكمن مصدر التطور الاجتماعي في المجتمع نفسه، في تناقضاته الداخلية التي تمزقه . ويتعلق الاتجاه الذي يتخذه تطور بلد ما ، والنظام الاجتماعي الذي يتوطد فيه في الكيفية التي تحل فيها هذه التناقضات

الطبقية الداخلية . وقد نص برنامج الحزب الشيوعي السوفياتي على أن الثورة لا تصنع بناء على توصية ، كما لا يمكن فرضها على الشعب من الخارج . اذ أنها تنشأ من تناقضات الرأسمالية العميقة الداخلية والعالمية للرأسمالية .

وبالتأكيد ، حدث ان فرض نظام فرضا ، في حالات عديدة ، من قبل القوى الرجعية الخارجية . ولكن لن تصمد مثل هذه النظم وستنهار عند أول محنة تعترضها .

لا ينفي الديالكتيك الماركسي ، بتأكيده على الدور الحاسم للتناقضات الداخلية ، أهمية التناقضات الخارجية في التطور . اذ لها دور متعدد الجوانب ، وغالبا ما تكون الشرط الضروري للتطور . وهذا هو حال التناقض القائم بين المجتمع والطبيعة التي ينتزع منها الانسان الخيرات المادية .

ان التناقضات الخارجية تساهم في التطور أو تعرقله، كما تمنحه أشكالا وفروقا مختلفة ، ولكنها لا تستطيع في الغالب تحديد مجرى التطور في مجمله . وهكذا ، كان حل التناقضات الداخلية وقبل كل شيء التناحر بين البرجوازية المهزومة والتي ما تزال تقاوم وبين البروليتاريا حاسما من أجل انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي . وتقدمت نحو الاشتراكية على الرغم من التناقضات الخارجية مع البلدان الرأسمالية التي حاولت جهدها اعادة الرأسمالية الى الجمهورية السوفياتية . ولقد أعاقت المقاطعة السياسية والحصار الاقتصادي والتدخل المسلح والغزو النازي تطور البلاد بشكل

ملحوظ ، ولكنها عجزت عن ايقاف مسيرتها الظافرة .

ان التناقضات الداخلية تحدد تطور كل الموضوعات والظواهر ، لذا يجب قبل كل شيء الاقرار بها والعمل على حلها من خلال الممارسة العملية . ومن جهة أخرى، يجب أن لا نهمل التناقضات الخارجية التي تحتل دورا هاما في التطور . ولا يمكننا أن نحقق النصر الا اذا أخذنا بعين الاعتبار ترابط وتفاعل التناقضات الداخلية والخارجية .

التناقضات التناحرية وغير التناحرية .

عند الكلام عن التناقضات التناحرية وغير التناحرية، يجب التفكير قبل كل شيء بالظواهر الاجتماعية . وأنه من الواضح أن تناحرات من نوع خاص تقسم الاجسام الحية الى نماذج متعددة من الجراثيم ، الى حيوانات ضارية وغير ضارية ، الى أنواع مختلفة من النباتات ، ولكن يجب أن لا نخلط بين هذه التناحرات وبين التناحرات الاجتماعية .

تضع التناقضات التناحرية الطبقات المتناقضة في مواجهة بعضها البعض ، بشكل جذري . وتكون التناقضات الاكثر حدة والاكثر بروزا محددة بتناقض قوي بين ظروف حياة الطبقات وأهدافها ومهامها . وتتميز هذه التناقضات في كونها لا تحل في اطار النظام الاجتماعي الذي يحددها . وتسبب هذه التناقضات عند زيادة حدتها صدامات ونزاعات عنيفة . ولا يمكن حلها الا بالثورة الاشتراكية ، لانها الوحيدة القادرة على ذلك .

وتناقض البرجوازية والبروليتاريا ، في العالم الرأسمالي ، حاد وعميق بشكل خاص . ويتعلى هذا التناحر بمكان الطبقات الموضوعي في المجتمع . فالبرجوازية تملك كل وسائل الانتاج ، لذلك يعود لها نصيب الاسد من القيم المادية المنتجة في المجتمع . كما تهيمن سياسيا وتتمتع بكل الخيرات الثقافية . أما البروليتاريا فلا تملك وسائل انتاج ، وهي مرغمة على العمل لصالح البرجوازية . ولا تحصل الا على نصيب هزيل من الخيرات المادية ، على الرغم من كونها منتجتها كلها .

تكون مصالح البرجوازية والبروليتاريا في تناقض كامل : تريد البرجوازية استمرار سيطرتها ، بينما تسعى البروليتاريا للتحرر من الاستغلال . فيندلع بينهما صراع طبقي شرس ينتهي ، بصورة حتمية ، الى الثورة الاشتراكية . اذا ، فان الصراع الطبقي والثورة الاشتراكية هما طريقة خاصة لتجاوز التناقضات الرأسمالية المتناحرة .

ينفي ايديولوجيو البرجوازية والمحرفون وجود التناحرات الطبقية في المجتمع الرأسمالي الحديث . ولكن التناقضات المتناحرة للرأسمالية الراهنة لا تزول في الحقيقة ، بل تزداد حدة . اذ انها موجودة وستبقى ، طالما وجدت الرأسمالية ولن تزول الا بعد انتصار الاشتراكية .

وتقسم التناقضات غير المتناحرة الطبقات والمجموعات الاجتماعية التي تنسجم مصالحها الاساسية والاولية. ويمكن تجاوزها تدريجيا دون ثورة اجتماعية . ومثال

ذلك : التناقضات بين الطبقة العاملة والفلاحين . ففي ظل الرأسمالية ، تستغل المدينة الريف والفلاح الذي يوجه حقده ضد العامل . ويملك الفلاح ملكية (أرض — حصان — أدوات زراعية ... الخ) . ويهمه جدا الاحتفاظ بها . أما العامل فلا يملك شيئا . فتتصادم مصالحهما في السوق حيث يرغب الفلاح ببيع نتاج عمله غاليا . اذا ، فان هذه الاشياء بصورة اجمالية تسبب بعض التناقضات بين الطبقة العاملة والفلاحين، في النظام الرأسمالي .

غير أننا اذا ما أخذنا هذه التناقضات بصورة مفصلة، للاحظنا انسجام مصالح العمال والفلاحين في النواحي الجوهرية . فكلاهما طبقتان مستغلتان (بفتح العين) وترغبان الخلاص من هذا الاستغلال ، لذلك فان مصالحهما منسجمة في هذه المسألة الاساسية. وتخلق هذه المشاركة في المصالح الحيوية قاعدة موضوعية لاتحاد الطبقة العاملة والفلاحين في النضال ضد النظام الرأسمالي .

وبأخذه بعين الاعتبار هذه المشاركة في مصالح العمال والفلاحين الحيوية، جمعهم الحزب الشيوعي السوفياتي في قوة اجتماعية قوية حطمت الرأسمالية . كما تم فيما بعد ، تجاوز التناقضات بينهم ، تلك التناقضات الموروثة من الرأسمالية . وذلك اثناء بناء الاشتراكية ، بينما تدعمت وحدتهم من خلال النضال من اجل الاشتراكية والشيوعية .

التناقضات الرئيسية والثانوية .

تحتوي كل الموضوعات والظواهر بآن واحد ، بدءا من أبسطها الى أعقدها ، عدة تناقضات . ولكي نجد طريقنا في خضم هذا العدد من التناقضات ، يجب اختيار التناقض الاساسي والرئيسي . لانه يقوم بدور حاسم ، دور من الدرجة الاولى في التطور ويمارس تأثيرا على كل التناقضات الاخرى .

فيكمن التناقض الرئيسي الحاسم لعملية كيماوية في التناقض بين اتحاد وتفكك الذرات ، والتناقض الحاسم في عملية بيولوجية ، في الخاصة المتناقضة للاستقلابات ،... الخ . ومن الهام جدا في الحياة الاجتماعية المتميزة بخاصة معقدة وبمظاهر متعددة، ايجاد التناقض الرئيسي فيها . اذ بعد تحديده ، يسهل على الطبقات الطليعة ، وعلى الاحزاب الماركسية،صياغة سياسية سليمة وتنظيم العمل التطبيقي بشكل فعال .

واذا ما أخذنا المجتمع المعاصر لوجدناه يحتوي على كمية كبيرة من التناقضات . كما نجد في كل بلد رأسمالي ، تناحرا بين الخاصة الاجتماعية لعملية الانتاج والشكل الخاص للتملك ، بين العمل ورأس المال . كما أن هنالك تناقضات بين البلدان الرأسمالية، بين تجمعاتها وكتلها ... الخ .

بين هذه التناقضات العديدة اي منها هو التناقض الحاسم والرئيسي ؟

ان التناقض الرئيسي في المجتمعات المعاصرة هو

التناقض بين قوى الاشتراكية ، التي يجسدها النظام الاشتراكي العالمي من جهة ، وقوى الامبريالية من جهة أخرى . وهذا التناقض هو أساس تطور البشرية ، ويفرض اتجاهين تاريخيين . الاول هو اتجاه التقدم والسلم والابداع ، الممثل بالنظام الاشتراكي العالمي ، والثاني هو اتجاه الرجعية والاضطهاد والحروب ، الممثل بالامبريالية .

يمارس تناقض الاشتراكية والامبريالية تأثيرا هاما على كل مسيرة التاريخ . فيؤثر على صراع الطبقات في الدول الرأسمالية نفسها ، وعلى نضال الشعوب المستعمرة ضد اضطهادها، وعلى التناقضات بين الدول الاشتراكية نفسها . ويعتبر وجود المعسكر الاشتراكي العالمي حاجزا من أجل منع اندلاع حرب عالمية جديدة تشنها الاوساط الامبريالية ، كما يعطي وجود هذا النظام عمال الدول الرأسمالية الثقة بعدالة قضيتهم مما يجعلهم يضاعفون قواهم في النضال ضد المستغلين. وكما ازدادت نجاحات النظام الاشتراكي في التنمية الاقتصادية والسياسية والثقافية ، ازداد تأثيره في الحلبة العالمية . لهذا السبب ، تأخذ الاحزاب الماركسية بعين الاعتبار ، عند تنظيمها الممارسة العملية اليومية، هذا التناقض الهام ، وكذلك ازدياد القوى الاشتراكية المستمر وضعف القوى الامبريالية .

ولا يزيل تناقض عصرنا الاساسي الذي يفصل بين الاشتراكية والرأسمالية ، التناقضات العميقة التي تصيب العالم الرأسمالي . وقد جاء في برنامج الحزب الشيوعي السوفياتي :

« ان التناقضات العميقة والحادة تمزق المنظامالامبريالي العالمي. كما يقوض تناحر العمل ورأس المال ، والتناقضات بين الشعوب والاحتكارات ، والعسكرية الصاعدة ، وتفكك النظام الاستعماري ، والتناقضات بين الدول الرأسمالية ، والنزاعات والتناقضات بين الدول الوطنية الفتية والقوى الاستعمارية القديمة ، وبشكل خاص، التطور الكبير للاشتراكية العالمية ولا يقوض الامبريالية ويحطمها ويضعفها ويقودها الى الهلاك ».

وليس هنالك من حدود مطلقة تفصل بين التناقضات الاساسية والثانوية ، الداخلية والخارجية ، التناحرية وغير التناحرية ، فهي متداخلة ، في الحقيقة ، ومتشابكة فيما بينها ، وتتحول من شكل الى آخر ، وتقوم بأدوار متعددة ومتنوعة في التطور . لذا يجب التصديبوضوح لكل تناقض ، مع الاخذ بعين الاعتبار الظروف التيظهر فيها والدور الذي يقوم به .

ويتصدى الحزب الشيوعي السوفياتي بوضوح ، آخذا بعين الاعتبار الظروف التاريخية ، لتناقضات التطور الاجتماعي ، فيحدد الرئيسية منها ويستخدم كافة القوى والوسائل من أجل حلها . ولقد لاحظ ، منذ بداية الثورة، وجود تناقض عميق بين السلطةالسياسية المتقدمة جدا والاقتصاد المتخلف الموروث من القيصرية. ولكنه حل هذه التناقضات من خلال النضال من أجل التصنيع . وزاد التقدم الصناعي ، شيئا فشيئا ، من حدة التناقض الذي برز بين الصناعة الاشتراكية وبين الزراعة المتخلفة لصغار الفلاحين . ولكنه حل أيضا بجهود الشعب والحزب ، وبفضل اشاعة الروح الجماعية في العمل في الريف . وقد كان لتجاوز هذه

التناقضات نتائج حاسمة في بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي .

قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية

يعالج قانون تحول التغيرات الكمية الى تغيرات نوعية الطريقة التي يتم فيها التطور ، اي آلية هذه العملية .

ولنفهم جوهر هذا القانون ، نوضح ما هي النوعية والكمية .

١ مفهوم النوعية والكمية

يحيط بنا العديد من الموضوعات والظواهر المختلفة التي تتحرك وتتغير باستمرار . ومع ذلك فنحن لا نخلط بينها ، بل نميزها ونعرفها . اذ تتميز كل واحدة عن الاخريات بخواص وميزات محددة خاصة بها .

واذا أخذنا مثلا الذهب . لوجدناه ذا لون أصفر مميز ، له قابلية كبيرة للسحب والتصفيح ، وكثافةوقدرة حرارية محدودتان ، ودرجة معروفة لغليانه وانصهاره. وهو غير قابل للانحلال في المحاليل القلوية ولا حتى في عدد من الحموض ، كما أنه قليل النشاط كيماويا ولا يتأكسد في الهواء . وتميز بكل ما ذكرنا من ميزات الذهب عن بقية المعادن .

ان ما يميز موضوعا ما عن بقية الموضوعات الاخرى هو كيفيته . اذ أن لكل الموضوعات والظواهر كيفية تسمح لنا بتصريفها وتمييزها .

فبماذا يتميز الحي عن الميت ؟ ..بمقدرته على القيام بمبادلات مع الوسط ، وعلى الرد بصورة جذرية على المحرضات الخارجية ، وعلى التكاثر . اذن ، تتكون كيفيته من هذه السمات ومن بعض السمات الاخرى .

وتتميز كذلك الظواهر الاجتماعية بكيفية محددة . فتتميز الراسمالية عن الاقطاعية بالانتاج التجاري والملكية الراسمالية ونظام الاجارة وسمات أخرى .

وتظهر الكيفية في الخواص . فتتميز خاصة واحدة مظهرا واحدا للشيء ، أما الكيفية فتعطينا مفهوما اجمالية للموضوع . لذا نقول بأن اللون الاصفر والقابلية على السحب والتصفيح ... الخ . تشكل خواص الذهب اذا ما أخذت بصورة منفصلة ، وكيفيته اذا ما أخذت بصورة اجمالية .

وفضلا عن الكيفية المحددة ، يتضمن كل موضوع كمية . وعلى خلاف الكيفية ، تميز الكمية الموضوع بدرجة تطوره أو وتيرة خواصه الملازمة له ، وبالمقدار والحجم ،... الخ . وكقاعدة ، يعبر عن الكمية بالعدد . فلابعاد ووزن وحجم الموضوعات ووتيرة الالوان الخاصة به والاصوات التي يبعثها ، تعبير عددي .

والظواهر الاجتماعية أيضا يمكن أن تميز بالعدد . اذ يقابل كل نظام اجتماعي اقتصادي مستوى ودرجة لتطور الانتاج . وللدولة كذلك قدرة انتاج محددة : عدد الناس ، مصادر المواد الاولية والطاقة .

والكمية والكيفيةمتحدتان لانهما تمثلانمظهر الموضوع

الواحد . وفي الوقت نفسه تفصل بينهما اختلافات جدية : يحول تغير الكيفية الموضوع الى موضوع آخر، ولكن تغير الكمية ، في حدود معينة ، لا يؤدي الى تغير ملحوظ في الموضوع . فاذا ما قضينا على الملكية الرأسمالية، سمة الرأسمالية الاساسية ، واستبدلناها بالملكية الاشتراكية ، يأتي نظام جديد ذو كيفية مختلفة، الاشتراكية ، ليحل محل الرأسمالية . ولكننا اذا جمعنا ومركزنا الملكية الرأسمالية بين أيدي زمرة صغيرة من الاحتكاريين أو بين أيدي الدول البرجوازية ، فلا يقضى على سمة النظام الاساسية ويبقى رأسماليا .

وتدعى وحدة الكمية والكيفية المعيار . وهو عبارة عن نوع من الحد ، من الاطار حيث يبقى فيه الموضوع على ما هو عليه . ويؤدي عدم التقيد بالمعيار ، هذا التطابق المحدد للمظاهر الكمية والنوعية (الكيفية) ، الى تغيير الموضوع ، الى تحوله الى موضوع آخر . ومثال ذلك معيار حرارة الزئبق السائل الذي يتراوح من ٣٩ الى + ٣٥٧ درجة . فيجمد الزئبق في الدرجة - ٣٩ ، ويبدأ بالغليان في الدرجة ٣٥٧ ، أي يبدأ بالتحول الى بخار . اذن فان عوامل الكمية والكيفية تكون ملازمة دائما للظواهر الاجتماعية . فمثلا ، تكون القاعدة المادية والتقنية للشيوعية مميزة ليس فقط بزيادة ملحوظة في الانتاج ، بل أيضا بسمات نوعية : كهربة شاملة وكاملة للانتاج ، مكننة كاملة وأتمتة متنامية لطرق الصناعة ، استخدام مصادر جديدة للطاقة والمواد الاولية والتجهيزات ، اتحاد عضوي بين العلم والانتاج ... الخ .

وانه لجوهري الاخذ بعين الاعتبار ، في المعرفة وفي الممارسة العملية ، وحدة كمية وكيفية الظواهر .

٢ ـ الانتقال من الكمي الى النوعي (القفزة) هو قانون للتطور

ذكرنا أن التغير في الكمية لا يسبب تغيرات نوعية ، في بعض المجالات . ولكن لكي تؤدي التغيرات الكمية، التي كانت تبدو طفيفة حتى الآن ، الى تحولات جذريةفي الكيفية ، يجب الخروج من هذا الاطار وعدم التقيد بالمعيار . وقد كتب **ماركس** يقول :

« في اثناء التطور ، تؤدي تغيرات بسيطة في الكيفية ، وصلت الى درجة معينة ، الى اختلافات في الكيفية .» (١)

ان الانتقال من الكمي الى النوعي هو قانون عام في تطور العالم المادي . ولتوضيح الخاصة الشاملة لهذا القانون ، يجب أن نبرز فعله في مختلف مجالات العالم الحقيقي .

تقر الفيزياء الحديثة ان الجسيمات البسيطة قادرة على التحول الى جسيمات أخرى ، مختلفة نوعيا . وتتم هذه التغيرات دائما على أثر بعض التراكمات الكمية: انها لا تتم الا اذا كانت الجسيمات تملكاحتياطيا محددا من الطاقة ، ومرتفعا شكل كاف .

ونلاحظ بكثرة وجود حالات عديدة لتحول المادة من

---

١ ـ كارل ماركس ـ رأس المال .

حالة الى اخرى (الانتقال من الحالة الصلبة الى الحالة السائلة ، ومن السائلة الى الغازية ... الخ) ، فاذا سخنا الماء الى درجة أعلى من ١٠٠ م ، تتغير كيفيته : يتحول الى بخار . وللبخار خواص تختلف عن خواص الماء ، اذ ليس له القدرة مثلا على اذابة الاملاح والسكر ، بينما الماء قادر على ذلك .

يظهر هذا القانون بشكل خاص في العمليات الكيماوية . وقد نص قانون ماندلييف (الدوري) في العناصر الكيماوية على أن كيفية هذه العناصر تتعلق بكمية شحنة نوى ذراتها الموجبة . ولا تسبب التغيرات الكمية للشحنة النووية ، في بعض الحالات ، تغيرات نوعية ، بل تؤدي الى عناصر جديدة اذا ما وصلت الى حد معين: في أثناء الانشطار المشع ، ينتهي الاورانيوم الى عنصر آخر ذي طبيعة مختلفة : الرصاص . وتعتبر الكيمياء ، بصورة عامة ، علم التغيرات النوعية التي تسببها التغيرات الكمية . فمثلا ، يحتوي جزاي الاوكسجين على ذرتين ، واذا ما أضفنا له ذرة أخرى نحصل على مادة كيماوية جديدة : الاوزون ..

وتجري أيضا تغيرات نوعية في العالم العضوي ، على الرغم من الصعوبة الكبرى في ملاحظة الشروط التي تسبب فيها التغيرات الكمية تغيرات نوعية . وقد قال الاكاديمي السوفياتي **تروفيم ليسينكو** Lissenko بأن النبات يمر بمرحلتين خلال تطوره :مرحلة الاستربياع printamisation (١) ومرحلة الضوء.

---

١ ـ المعالجة بالبرد لتعجيل الاثمار .

كما يتعلق الانتقال من مرحلة نوعية الى أخرى بتغير كميات الحرارة والرطوبة والضوء ، المحيطة .

ويقوم هذا القانون أيضا بدور هام في التطور الاجتماعي . ولتغير النظام الاجتماعي بصورة جذرية ، أي للانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية ، الذي يتم عن طريق الثورة الاشتراكية ، مقدمات كمية محددة : ازدياد القوى المنتجة في ظل الرأسمالية ، ازدياد حدة سمة الانتاج الاجتماعية ، الازدياد العددي للبروليتاريا الثورية ... الخ .

ولا يقتصر الواقع الموضوعي على الانتقال من الكمي الى الكيفي ، فهو يعرف عملية معاكسة : ارتفاع الكمية تحت تأثير التغيرات في الكيفية . وهكذا ، يؤدي التغير النوعي الجذري في النظام الاجتماعي ، أي استبدال الرأسمالية باشتراكية ، الى تغير جوهري في المؤشرات الكمية : ازدياد حجم الانتاج الصناعي والزراعي ، تسارع في وتيرة التطور الاقتصادي والثقافي ، ازدياد الدخل الوطني والاجور ... الخ .

اذن ، تكون التغيرات في الكمية وفي النوعية مرتبطة ومتعلقة ببعضها البعض .

وحدة الاستمرارية وعدم الاستمرارية (القفزات) في التطور .

تكون التغيرات في الكمية بسيطة نسبيا ، ولكنها مستمرة ، بينما تكون التغيرات في الكيفية غير مستمرة وتتم بالقفزات . فندرك اذا ، أن التطور هو وحدة

شكلين أو حالتين مختلفتين عن بعضهما ، ولكنهما مرتبطتان : الاستمرارية وعدم الاستمرارية (القفزات) (١) . والاستمرارية في التطور هي مرحلة التراكمات البطيئة ، غير المنظورة ، في الكمية ، ولا تؤثر في الكيفية بل تسبب تغيرات قليلة الاهمية في الكمية وفق عملية الازدياد أو النقصان .

وبفضل عدم الاستمرارية ، القفزة ، تجري تغيرات جذرية في كيفية الموضوع ، على مدى فترة ، يتحول خلالها القديم الى جديد . وعلى عكس التغيرات في الكمية المستترة والبطيئة ، تمثل القفزة تغيرات في الكيفية واضحة وسريعة نسبيا . وتتم هذه القفزات بسرعة ، وحتى عندما تجري التحولات في الكيفيةبصورة تدريجية .

يشكل نشوء جسيما بسيطة من جسيمات أخرى ، وتغير حالة المواد ، وتشكل عنصر كيماوي جديد ، وظهور نبات أو حيوان جديد ، ونظام اجتماعي جديد ، قفزات في التطور . وتنتج كل قفزة من تراكم كمي يتقدمها .

وكلما تم القضاء على القديم في صالح الجديد والتقدم ، على أثر قفزة ، اكتسى الجديد أهمية كبرى في التطور . وتكون أهمية القفزات كبيرة ، بشكل خاص ، في

---

١ ـ ليس فقط في التطور ، بل ايضا في حالة المادة حيث تكون الاستمرارية وعدم الاستمرارية متلازمين . فللمادة ، كما نعلم ، خواص تموجية (مستمرة) وجسمانية (غير مستمرة) .

تطور المجتمع حيث تأخذ غالبا هذه القفزات شكل ثورة اجتماعية تقضي على النظام القديم ، وتفرض نظاما جديدا مزيلة بذلك كل العوائق التي تعترض التقدم الاجتماعي .

وبما أن التطور يجري دائما باتجاه وحدة التغيرات في الكمية (الاستمرارية) وفي الكيفية (عدم الاستمرارية)، فمن الهام أن نأخذ بعين الاعتبار ، في الممارسة العملية والمعرفة ، هاتين المرحلتين . واذا ما تجاهلنا احداها نكون قد شوهنا عملية التطور، وغصنا في الميتافيزيقية .

وان ما يميز الميتافيزيقيين رفضهم لمبدأ التغيرات في الكيفية ، وإرجاعهم التطور الى تراكمات غير موزونة في الكمية . وأن نظرية التكون المسبقة **prèformisme** في علم البيولوجيا هي مثال على وجهة النظر هذه . اذ يقول أنصارها (أمثال روبينيه) أن الجنين هو عبارة عن جسم متطور بشكل كامل وبالغ ، ولكنه موجود بنسب مجهرية . أما التطور برأيهم ، فهو عبارة عن نمو بسيط ، أي عن ازدياد أبعاد هذا الجنين . أما في الحقيقة ، فان هذا الجنين يتلقى ، خلال تطوره ، تغيرات نوعية عميقة .

ويحاول ايديولوجيو البرجوازية والمحرفون ، انطلاقا من وجهة النظر هذه ، تفسير التطور الاجتماعي . فيقولون انه استمرارية دون قفزات ، دون انقلابات ثورية . فينفون بذلك ضرورة الثورة الاشتراكية . ولكن من الخطأ الفادح تقليل أهمية ودور التغيرات في الكمية، أو اعادة التطور الى القفزات أو الى الاستمرارية ،

مثلما كان يفعل **كوفيه** Cuvier ، العالم الفرنسي في القرن التاسع عشر . فقد قدر كوفيه أن كوارث (خرافية) اجتاحت الارض الواحدة أثر الاخرى ، مما أدى الى اختفاء أصناف النباتات والحيوانات القديمة، واستبدلت باصناف أخرى جديدة . كما أنكر كوفييه كل ارتباط بين الانواع الجديدة والقديمة .

كان نفي التغيرات في الكمية أساسا للنظرية الفوضوية ، التيار البرجوازي الصغير المعادي للماركسية . اذ يستخف الفوضويون بالعمل الطويل الشاق في تجميع القوى وتنظيم الجماعير ، وتحضيرها التدريجي للمعارك الثورية . فهم يعتمدون على تكتيك المغامرات والمؤامرات التي تضر ضررا بالغا بالحركة العمالية .

يفرض الديالكتيك الماركسي أن نأخذ بعين الاعتبار شكلي التطور : التطور المستمر والتطور بالقفزات .
ولا يمكن أن تتم القفزة ، الثورة التي تقوم بدور متزايد في التطور ، أي الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية، الا بتغير نوعي في النظام الرأسمالي ، الا بالثورة الاشتراكية ، وليس بالتغيرات الكمية البطيئة .

وهكذا ، تكون الصفات الكمية والنوعية ملازمة لكل الموضوعات والظواهر . كما تكون الكمية والنوعية مرتبطتين ببعضهما . اذ تتحول التغيرات الكمية،خلال التطور ، والتي تكون تدريجية وغير ملحوظة في البدء، الى تغيرات نوعية جذرية . ان هذه المرحلة تأخذ شكل قفزة .

هذا هو جوهر القانون الديالكتيكي لتحول الكمية الى كيفية . والقفزة ، كما رأينا ، هي الاسلوب الشامل والالزامي لهذا التحول . وكما أن الموضوعات والظواهر متنوعة في العالم كذلك هي حال القفزات .

٣ ـ الاشكال المختلفة للانتقال من كيفية الى أخرى .

تتميز القفزة بالانعطاف المفاجىء ، بتشكل كيفية جديدة . ويتم هذا التغير (الانعطاف) في الموضوعات المختلفة ، هذا الانتقال من الكيفية القديمة الى الكيفية الجديدة بطرق مختلفة وأشكال متنوعة . فمن شكل القفزة ، نعلم كيف سيتم الانتقال من القديم الى الجديد ، بسرعة ، فجأة ، دفعة واحدة أو بصورة تدريجية ، على مراحل ؟

تتخذ بعض القفزات شكلا مفاجئا وسريعا ، وفي هذه الحالة يتحول القديم الى جديد دفعة واحدة ، وبشكل كامل وجذري . وتكون بعضها الاخر أقل سرعة وأقل مفاجأة . وفي هذه الحالة لا يتحول القديم الى جديد دفعة واحدة ، ولا بشكل كامل وجذري ، بل على مراحل : تزول عناصر القديم تدريجيا بينما يحل محلها عناصر من الجديد تدريجيا أيضا . ولا يجب الخلط بين قفزة من هذا النوع ، بين تغير تدريجي في الكيفية ، وبين التراكم الكمي التدريجي . اذ تشكل مثل هذه القفزة ، بكل تأكيد ، تغيرا أكثر ملاحظة وسرعة من أكبر التغيرات الكمية . ومن جهة أخرى ، لا تؤثر التغيرات التدريجية في الكمية في أساس وطبيعة الموضوع ، بينما تشكل دائما كل قفزة تدريجية منعطفا

حاسما في التطور : اذ أنها تحول الموضوع الذي تغير واتخذ له كيفية جديدة .

بماذا يتعلق شكل القفزة ؟

يتعلق قبل كل شيء بخاصة الظاهرة المتطورة . اذ لكل ظاهرة طريقتها الخاصة في التحول الى ظاهرة أخرى . فمثلا ، يتم تحول الجسيمات البسيطة بواسطة الانفجار. فيكفي ان يصطدم، اذن ، الكترون وبوزيترون يحملان طاقة كبيرة حتى يحدث انفجار مفاجيء ويحول الجسيمات (الكترون — بوزيترون) الى فوتونات . كذلك فان عملية تحول العناصر الكيماوية الى عناصر أخرى تتم بسرعة ، وذلك عندما تنقص أو تزداد شحنة النوى الذرية .

وتتم القفزات بشكل عام بصورة تدريجية ، في آلطبيعة العضوية . ويكون ظهور الاجناس الجديدة مرتبطا بالوسط المحيط . وبما أن الوسط يتغير ببطء وبصورة ، فلا تظهر الاصناف النباتية والحيوانيةالجديدة فجأة بل بصورة بطيئة أيضا : الاصناف هي نتيجة تطور طويل تكتسب الاجسام ، من خلاله ، خواصا جديدة تدريجيا ، وتنقلها الى سلالاتها بعد أن أصبحت متلائمة مع الوسط الجديد . بينما تفقد خواصها القديمة لعدم تلاؤمها مع الظروف الجديدة .

نعلم أن الانسان هو نتاج تطور طويل . فعلى الرغم من أن القرد الشبيه بالانسان قد تطور شيئا فشيئا الى الانسان ، فقد كان هذا التحول قفزة هائلة وثوره في تطور العالم الحيواني : لقد بدأ المجتمع الانساني

وجوده .

ويتعلق شكل القفزة أيضا بالظروف التي يجري فيها التطور . ففي الانشطار النووي مثلا ، تتحول نوى العناصر الكيماوية الى نوى أخرى ، أقل ثقلا .وتتحول الطاقة النووية الى طاقة حرارية . ويحدث ذلك اما في الانفجارات (القنابل الذرية) واما بتغير طاقة الذرة التدريجي الى حرارة ، كما في مفاعلات المراكز الذرية.

وفي التطور الاجتماعي أيضا ، يمكن أن يتم الانتقال من القديم الى الجديد اما بصورة سريعة وعنيفة ، واما بصورة تدريجية . فكانت ثورة أوكتوبر ، أكبر انعطاف نوعي في التاريخ ، والتي دشنت عصرا جديدا في تطور البشرية ، عصر الاشتراكية قفزة سريعة وعنيفة. اذ بفضل هذه الثورة ، وضعت البروليتاريا الروسية بثورة مسلحة ، حدا لسيطرة البرجوازية وأقامت سلطتها الخاصة .

أما الثورة الثقافية التي تلت انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي ، فقد كانت شكلا آخرا للقفزة . فقد كانت قفزة ، انتقال ثوري الى ثقافة جديدة اشتراكية ، ولكنها لم تتم دفعة واحدة ، بل خطوة خطوة ، وبشكل مواز لنجاحات البناء الاشتراكي . وسيتوج ازدهار الثقافة في مرحلة بناء المجتمع الشيوعي ، هذه الثورة الثقافية .

وبدون أن نوضح ونعرف أهمية خصائص القفزات ، لا يمكننا الانتقال من القديم الى الجديد .

وفي أيامنا هذه ، يطرح موضوع أشكال الانتقال من

الراسمالية الى الاشتراكية في مختلف البلدان بحدة خاصة ، مع المراعاة أن هذا الانتقال لا يتم الا عن طريق الثورة الاشتراكية . والانتقال مستحيل دون قفزات نوعية ودون ثورة . غير ان الطريق التي تتخذه الثورة في البلد المعني تتعلق بمستوى تطور وقوة وتنظيم طبقته العاملة وحلفائها ، وبتقاليد وعادات شعبه ، وبقوة البرجوازية ومقاومتها ، كما تتعلق بعوامل أخرى داخلية وخارجية .

وتثبت تجربة بناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي وفي الدول الاشتراكية الاخرى أن تطور الثورة الاشتراكية يتم تحت أشكال مختلفة متناسبة مع كل بلد . وستتضاعف هذه الاشكال كلما بدأت دولة طريقها في بناء الاشتراكية .

قانون نفي النفي

يوضح قانون نفي النفي الاتجاه العام لتطور العالم المادي . ولفهم جوهر ومدى هذا القانون ، نبدأ بتوضيح ماذا يعني النفي الديالكتيكي والمكانة التي يحتلها في عملية التطور .

١ ـ النفي الديالكتيكي ودوره في التطور .

في كل مكان من الواقع المادي ، يأخذ الجديد التقدمي مكان القديم البالي . وما التطور سوى استبدال القديم بالجديد، الذي يموت بالذي يولد ، اما النفي فهو انتصار الجديد على القديم ، هو ما ينتج عن القديم .

وهيجل هو الذي أدخل في الفلسفة تعبير « النفي »

ولكنه أعطاه معنى مثاليا . اذ أعتبر تطور الفكر والتفكير أساس النفي .

احتفظ **ماركس وأنجلز** بتعبير النفي ولكنهما أعطياه معنى ماديا . فأثبتا أن النفي هو أحد عناصر الواقع المادي نفسه التي لا يجوز التصرف بها . وقد كتب **ماركس** يقول :

« لا يمكن ان يكون هنالك تطور ، في اي مجال من المجالات ، الا اذا نفى أشكال وجوده السابقة » . (١)

مثال : مر تطور القشرة الارضية في عدة عصور جيولوجية ، ولكن كان ظهور كل عصر بدءا من العصر الذي سبقه نفيا للعصر السابق . وكذلك فان ظهور كل نوع جديد من النبات والحيوان من الانواع السابقة، هو نفي لها في الوقت نفسه . والقول نفسه ينطبق على تاريخ المجتمع ، اذ انه سلسلة متتابعة من نفي النظم الاجتماعية السابقة بأنظمة جديدة . نفي المجتمع الرقي المجتمع البدائي ، ونفى المجتمع الاقطاعي المجتمع الرقي ، ونفى المجتمع الرأسمالي المجتمع الاقطاعي ، ونفي المجتمع الاشتراكي المجتمع الراسمالي . ومفهوم النفي ملازم أيضا لتطور المعرفة في العلوم . اذ تنفي كل نظرية علمية جديدة أكثر اتقانا النظرية السابقة الاقل اتقانا .

وليس النفي مفهوما مستوردا من الخارج الى

---

١ ـ كارل ماركس ، فريدريك انجلز ـ المؤلفات .

الموضوع أو الى الظاهرة . انه ينتج من تطوره الداخلي الخاص . فتكون الموضوعات والظواهر ، كما نعلم ، في تناقض مستمر ، وبتطورها انطلاقا من تناقضاتها الداخلية ، تخلق من ذاتها ظروف فنائها ، وظروف انتقالها الى كيفية جديدة ، أعلى . النفي هو اذا الانتصار على القديم ، ونتيجة التطور الذاتي ، والحركة الخاصة للموضوعات والظواهر . وهكذا ، تحل الاشتراكية محل الرأسمالية لتحل التناقضات الملازمة للنظام الرأسمالي .

المفهوم الديالكتيكي والميتافيزيقي للنفي .

تفهم الديالكتيكية جوهر النفي بشكل مختلف عن الميتافيزيقية . فالميتافيزيقية ، وهي تشوه عملية تطور الواقع المادي ، تدرك النفي على أنه فناء وزوال تام للقديم . ولقد وصف لينين هذا المفهوم بالاعتباطي ، لانه استبعد كل الامكانيات في تطور لاحق .

وكذلك كان حال ممثلي اتجاه **بروليتكوت** PROLETkULT (١) البرجوازي الصغير . اذ طالبوا منذ السنوات الاولى للسلطة السوفياتية بالتخلي عن الثقافة التي نشأت في ظل النظام البرجوازي ، لنشوء ثقافة جديدة ، ثقافة بروليتارية . وان مفهوم النفي هذا ،

---

١ ـ تسمية مختصرة لمنظمة الدعاية الثقافية المستقلة (الثقافة البروليتارية) التي وجدت من عام ١٩١٧ وحتى عام ١٩٣٢ . وقد كان لدى منظري هذه المنظمة مفاهيم غريبة عن الماركسية بالنسبة للثقافة والفن .

البعيد في أن يساهم في التطور ، هو ضار في عملية التقدم،وقد أشار لينين، منتقدا المدافين عن البروليتكولت، الى ضرورة استخدام الارث الثقافي القديم ، اذ لا يمكن خلق ثقافة اشتراكية حقيقية الا بعد تنقيح الثقافة القديمة .

أما الديالكتيك الماركسي فقد أوضح الجوهر الحقيقي للنفي الديالكتيكي . وقد قال **لينين** :

« لا يقوم الديالكتيك الماركسي بنفي اعتباطي ، بل بنفي في كونه لحظة في الارتباط ، وفي التطور ، مع الاحتفاظ بما هو ايجابي » .

لا يضرب الجديد صفحا عن القديم ، حسب المفهوم الديالكتيكي للنفي ، بل يحتفظ بما هو جيد فيه . وفوق ذلك ، يحوله ويرفعه الى درجة أعلى . وهكذا ، احتفظت الاجسام العليا ، بنفيها الاجسام الدنيا التي ولدتها ، بالبنية الخلوية الخاصة بها ، وبالخاصة الاصطفائية للانعكاس ، وبخواص أخرى . كما يحتفظ النظام الاجتماعي الجديد ، بنفيه لسلفه ، بالقوى المنتجة ، وبالانتصارات العلمية ، والتقنية والثقافية . كذلك تتحقق علاقة الجدية والقديم في المعرفة وفي العلم .

وهكذا ، فان ما يميز المفهوم الماركسي ، هو اقراره بالارث ، باتصال الجديد والقديم في التطور . ولكن يجب التنويه الى أن الجديد لا يتبنى القديم بصورة جذرية . فلا يأخذ منه سوى بعض عناصره ، وبصورة غير ميكانيكية ، فيتمثلها ويحولها ويجعلها ملائمة لطبيعته الخاصة . كما يفرض الديالكتيك الماركسي مواجهة

تجربة الانسان الماضية بنظرة نقدية ، واستخدامها بشكل خلاق ومبدع ، مع الاخذ بعين الاعتبار التغيرات والظروف والمهام الجديدة المفروضة على الممارسة العملية الثورية . ولم تكتف الفلسفة الماركسية ، مثلا ، باجترار مكتسبات الفكر الفلسفي السابق ، بل عملت على تحويله واغنائه ، وذلك بأن قدمت الكثير للعلم وللممارسة العملية ، كما رفعت علم الفلسفة الى درجة أعلى وجديدة نوعيا .

ان الطبقة العاملة وحزبها الماركسي هما اللذان يحتفظان بصورة أفضل ، بمكتسبات الماضي . ولا تكتفي البروليتاريا وهي في السلطة باستخدام انجازات العهود التاريخية السابقة . بل تحقق لها أيضا وهي تبني المجتمع الجديد نجاحات لا سابق لها ، في كل مجالات الاقتصاد الوطني ، والعلم والثقافة .

٢ ــ خاصة التطور التقدمية .

لقد رأينا بأن هذه او تلك من التناقضات قد سويت بالنفي ، وبأن القديم قد زال وتأكد الجديد . ولكن هل يقف التطور هنا ؟ لا ، التطور لا يقف هنا . فالجديد لا يبقى سرمديا . وخلال توطره يحضر المقدمات ، ظروف ظهور الاشياء الاكثر حداثة منه ، والاكثر ملاءمة . وما أن تنضج هذه المقدمات والظروف حتى نكون أمام نفي جديد . انه نفي النفي ، أي نفي ما كان قد نفي الاقدم منه واستبداله بما هو أحدث منه . ثم سيتم تجاوز نتيجة النفي الثاني بما هو أحدث ، وهكذا الى ما لا نهاية . اذا فالتطور سلسلة غير متناهية من النفي ، اي انتصار غير متناه ومستمر للجديد على القديم .

وفي كل مرحلة أعلى في التطور ، بنفيها ما هو بال في المراحل الدنيا ، وبتبنيها وباكثارها في آن واحد نتائج المراحل السابقة ، يكتسب التطور في مجمله خاصة تقدمية ، أي حركة مستمرة الى الامام . فالتقدم اذا هو اتجاه شامل مميز للتطور الديالكتيكي .

ويتحقق التقدم على كل مستويات الواقع . واذا ما أتينا على دراسة التطور على سطح كوكبنا لوجدنا ، كما رأينا سابقا ، أن ركاما من الغاز والغبار مكونا من مواد كيماوية بسيطة كان العناصر البدائية في تشكيل كواكب النظام الشمسي ، بما فيها الارض . وكلما تطورت الطبيعة ، تعقدت هذه المواد . وكانت نتيجة ذلك نشوء طبيعة عضوية ، طبيعةجديدة. ثم تطورت الاجسام الحية من البسيط الى المعقد : من أشكال ما قبل الخلية ، الى الخلية ، الى وحيدات الخلية ، ثم الى حيوانات أكثر تعقيدا أدت بتطورها الى نشوء الكائنات الشبيهة بالانسان ثم الى نشوء الانسان ، فيما بعد . ويبدأ تاريخ التطور الاجتماعي مع ظهور الانسان ، وقد جرى على مراحل متعاقبة : النظام البدائي ، العبودية ، الاقطاعية ، الرأسمالية وأخيرا الاشتراكية التي حلت محل الرأسمالية . والتسارع المستمر للوتيرة هو الخاصة الاكثر اهمية للتطور الاجتماعي . لقد ظهر الانسان منذ قرابة مليون سنة . أما الانسان الحديث فلم يظهر الا منذ بضعة عشرات الالوف من السنين . ونلاحظ هنا بطء تطور الانسان . وكان تطور المجتمع الرقي والاقطاعي أسرع من تطور المجتمع البدائي . ثم جاء تطور المجتمع

الرأسمالي بسرعة أكبر . كما يزداد تسارع الانتقال الى الاشتراكية . وفي المستقبل ، عندما تتحرر الانسانية من العلاقات الرأسمالية المعيقة للتقدم ، وعندما تستطيع استخدام كل مواردها لترويض قوى الطبيعة، سيكون التطور ذو سرعة لا مثيل لها .

التطور الحلزوني

ان خاصة التطور التقدمية هي السمة الاساسية . ولكن ليست الوحيدة ، لقانون نفي النفي . **فينص هذا** القانون على ان التطور ليس حركة مستقيمة،بل عملية معقدة جدا ، حلزونية ، مع بعض التكرار لمراحل سابقة ، أي مع بعض الرجوع الى الوراء . وقد كتب **لينين** معلقا على هذه السمة الهامة للديالكتيك :

« ان التطور الذي يبدو معيدا لمراحل معروفة ، ولكن بشكل اخر، الى درجة اعلى ، هو تطور حلزوني وليس تطورا مستقيما » .(١)

وتتطور مختلف مجالات الواقع بشكل حلزوني .

يعتبر قانون **مانداليف** الدوري للعناصر الكيماوية ، الذي أتينا على ذكره ، أحد أبرز المظاهر لخاصة تطور الطبيعة غير العضوية .

ففي جدول مانداليف الدوري ، كما نعلم ، تكون العناصر مرتبة حسب كبر الشحنة الموجبة للنواة الذرية . فتشكل دورات وحلقات تتضمن بعض التكرار للخواص . ولنأخذ مثلا الدور الثاني الذي يبدأ بعنصر

---

١ ـ لينين : ماركس ، انجلز ـ الماركسية .

الليتيــوم LITHIUM فهو عنصر ذو خواص معدنية بارزة ، اذ أنه معدن أساسي VASIQUF فكلما كبرت الشحنة النووية للعناصر التي تليه في الـــدور ، اتجهت الخواص المميزة في اتجاه معاكس ، بينما تزداد حدة خواصها غير المعدنية بصورة تدريجية . ونجد في نهاية الدور الفلور شبيه المعدن والنيون الغاز الخامل. ويبدأ الدور الثالث بمعدن أساسي (الصوديــــوم) وينتهي بالكلور شبيه المعدن ثم بالارغون الغاز الخامل. وتتكرر هذه الحالة في كل الدورات حيث نجد نفـــي الخواص المعدنية ، في نهايته ، بأشباه المعادن ، ثـم نجد مرة أخرى ، مع بداية الدور الجديد ، نفي الخواص شبه المعدنية بالخواص المعدنية . انها مثل عودة الـــى الحالة السابقة ، انها نفي النفي .

واذا ما مثلنا بيانيا جدول العناصر هذا لحصلنا على حلزون صاعد ملفوف . تتكرر الخواص كلما ازداد عدد العناصر (٢ في الدور الاول ــ ٨ في الثاني ...) ويتم هذا التكرار على أساس مختلف نوعيا : تملك عنـــاصر الدور الجديد شحنة نووية أكبر ، وبنية أكثر تعقيـــدا وخواص مختلفة .

وفي العالم العضوي أيضا يكون التطور حلزونيا . وأظهر انجلز أثر هذا القانون انطلاقا من حبة الشعير . فاذا ما سقطت الحبة في مكان ملائم ، ظهر لها ساق ، وبذلك تنفي الحبة ، ثم تتشكل سنبلة مع حبات جديدة. وتكون هذه الحبات نفي للساق ، اذا فهي نفي النفي. ومن جهة أخرى ، يتم شبه عودة الى نقطة الانطلاق ، الى الحبة ، ولكن على أساس جديد . فعندما تنضـــج

الحبات تكون مختلفة عن التي زرعت ، ليس فقط بالكمية (١٠ أو ٢٠ ضعفا) ، بل بكيفيتها أيضا . وهنا أيضا يكون التطور قد تم بشكل حلزوني . لان حبة واحدة قد أعطت عدة حبات مختلفة ، ثم تولد هذه الحبات بدورها كمية أكبر ،... الخ .

والتطور في الحياة الاجتماعية هو أيضا تطور حلزوني . كان نظام المشاعية البدائية أول شكل للتنظيم الاجتماعي . وقد كان مجتمعا بلا طبقات ، قائما على الملكية الجماعية لوسائل الانتاج البدائية جدا . ثم ادى تطور الانتاج الى نفي هذا النظام بمجتمع طبقي ، مجتمع العبودية . ثم نفت الاقطاعية العبودية ، والرأسمالية الاقطاعية .واخيرا، حلت الاشتراكية ، المرحلة الاولى من الشيوعية ، محل الرأسمالية . وبذلك حصلنا على نوع من نفي النفي ، عودة الى نقطة الانطلاق ، ولكن على اساس مختلف تماما وجديد نوعيا .

وكما رأينا ، فان نفي النفي هو حلقة ، هو تكرار للتطور . ولكن يجب الاشارة ، بشكل خاص ، الى ان تكرار المراحل القديمة ليس عودة غير مشروطة الى القديم ، بل هو توطيد للجديد الذي غالبا ما يقدم مظهرا خارجيا مشابها ، الى حد بعيد ، للقديم ، ولكنه يتميز عنه جذريا بطبيعته الداخلية . فالصوديوم مثلا ،الذي يبتدأ به الدور الثالث من جدول ماندلييف ينتمي ، مثل الليتيوم ، الى زمرة المعادن الاساسية ، ولكن بتنظيم اكثر تعقيدا وخواص اخرى . وتبدو الملكية الجماعية السائدة في الاشتراكية ، على انها عودة الى الملكية

المشاعية للمجتمع البدائي ، ولكنها في الواقع ، تعيده على اساس مادي وروحي مختلف جدا ، بشكل لا يمكن مقارنتها مطلقا بنظام المشاعية البدائية ·

اذن ، يتم التطور عن طريق نفي الجديد للقديم ، نفي الاعلى للادنى ·

والجديد ، بنفيه القديم ، وباحتفاظه بسماته الايجابية والقيام بتطويرها ، يكتسي التطور خاصة تقدمية · ويتم التطور ، من جهة اخرى حلزونيا مع تكرار المراحل العليا لبعض اوجه وسمات المراحل الدنيا ·

هذا هو جوهر القانون الديالكتيكي لنفي النفي ·

●

لقد أتينا على دراسة القوانين الاساسية للديالكتيك المادي ، في هذا الفصل · وتفسر لنا هذه القوانين الحركة الشاملة والتطور في العالم المادي ، وتظهر أصل قواها المحركة الموجودة في التناقضات الداخلية · كما تظهر ان التطور يتم على قفزات وان التقدم هو اتجاه سيره ومنحاه وانه يتم على اساس الاستبدال المستمر للقديم ونفيه بالجديد ·

ولنفهم بصورة أفضل كل أوجه التطور ، لندرس ايضا المقولات الاساسية للديالكتيك المادي ·

الفصل الخامس

مقولات الديالكتيك المـــادي

لا يتضمن كل علم ، مهما كان مجاله ، نظام قوانين فقط بل ايضا مقولات محددة ، اي مفاهيم عامة صيغت خلال تطور كل علم واصبحت اساسه وقاعدته · وهذه المقولات ، في الميكانيك مثلا ، مكونة من مفهوم الكتلة والطاقة والقوة ، وفي الاقتصاد السياسي من السلعة والقيمة والمال ، ··· الخ ·

وتوضح الفلسفة نظامها ، من خلال تعميمها للنتائج العلمية ولنشاط الممارسة العملية · ومـــــا المقولات الفلسفية سوى مفاهيم تعكس العلاقات والسمات العامة، وأوجه وخواص الواقع · ولقد اخذنا فكرة عن بعض المقولات الهامة عندما درسنا المادية الفلسفية : مقولتي المادة والوعي،وكذلك مقولات المكان والحركة والزمان· وعند دراستنا للقوانين الاساسية للديالكتيك الماركسي، قمنا بتحليل بعض المقولات مثل التناقض ، الكمية ، الكيفية ، القفزة والنفي · اما في هذا الفصل فسندرس، بشكل خاص ، مجموعة اخرى من المقولات : الضرورة والصدفة ، الخاص والعام ،الشكل والمضمون ،الجوهر والظاهرة ، السبب والنتيجة ، الامكانية والواقع ·· وستكمل دراسة هـــذه المقولات ، بصورة اساسية ، مفهومنا عن التطور وعن الصلات في العالم المادي ، اي عن القوانين الاساسية للديالكتيك الماركسي·

ان قوانين ومقولات الديالكتيك مرتبطة فيما بينها · ولقد رأينا في اثناء دراستنا للقوانيـــن الاساسية

للديالكتيك الماركسي انها في الاساس ، علاقة وترابط المقولات ٠ فمثلا ، يعبر قانون الانتقال من الكمي الى النوعي عن علاقة ما بين مقولتي الكمية والكيفية ، ٠٠٠ الخ ٠ ومن جهة اخرى فان جهل المقولات يعيق فهم القوانين ٠ ولا نستطيع فهم جوهر مقولات الديالكتيك الا عندما نعرف هذه القوانين ٠ فمثلا ، يتيح لنا قانون وحدة وصراع الاضداد فهم المعنى الحقيقي للمقولات المتناقضة مثل المضمون والشكل ، الضرورة والصدفة، الامكانية والواقع ، ٠٠٠ الخ ٠

وقبل البدء في دراسة المقولات ، سنوضح اصلها ونحلل بعض سماتها العامة ٠

١ ـ اصل مقولات الديالكتيك وسماتها العامة

مقولات الديالكتيك الماركسي هي نتيجة ، وتعميم تجربة الانسان منذ بدء التاريخ ، انها عناء الانسان ونتيجة معارفه ٠ لقد استخلص الانسان من خلال نشاط ممارسته العملية للموضوعات والظواهر الطبيعية ، الاساسي والشامل بعد معرفتها ، ثم ثبت النتائج في مقولات وفي مفاهيم ٠ فمثلا ، كون مقولتي السبب والنتيجة ، والمضمون والشكل ، في الوعي بعدما اصطدم ، بصورة عملية ، مليارات المرات مع الاسباب والنتائج الموجودة موضوعيا ، مع مضمون وشكل الاجسام المادية الملموسة ومع مظاهر الواقع الاخرى الهامة ٠ اذن ، تنتج المقولات من نشاط الانسان العملي الجماعي ، انها درجات في المعرفة للعالم المحيط من قبل الانسان :

« توجد امام الانسان ، شبكة من الظواهر الطبيعية ، ولا يتحرر

الانسان الغريزي ، المتوحش ، من الطبيعة ، اما الانسان الواعي فيتحرر منها ، وما المقولات سوى درجات هذا الانعتاق ، اي انها درجات معرفة الكون » (١)

وفي كونها نتيجة الممارسة العملية والمعرفة ، تقوم مقولات الديالكتيك الماركسي بدور كبيـــــر في النشاط العملي والادراكي · وبما انها درجة في المعرفة ، تساعد المقولة الانسان على توضيح ظواهر الطبيعة والمجتمع المعقدة ، وعلى فهم علاقات الاشياء المتبادلة وترابطها، ونظام تطورها المحدد وخاصته الحقيقية ، وبالتالـــي على التأثير بنجاح في الممارسة العملية ·

ويبـــدأ الديالكتيك الماركسي ، بتوضيحه جوهر المقولات وأصلها ، توضيـــــح خاصتها الموضوعية · والموضوعات والظواهر الموجودة خـــارج الانسان ، وسماتها الاكثر شمولية والاكثر جوهرية هي أصـــــل المقولات · وهكذا ، تعكس مقولتا السببية والنتيجـــة الارتباط الموضوعي بيـــن المواضيع والعمليات التي بسببها تولد بعض منها موضوعات وظواهر اخرى·

وعلـــــى عكس المادية ، لا تعترف المثالية بخاصة المقولات الموضوعية · فيدعي مثلا المثاليون الذاتيون ان المقولات لا توجد الا في وعي الانسان وليس لها اي دخل مع الواقع ·واعتبر«**كانت**» ان الانسانقبل ان يبدأ معرفة العالم ، كان وعيه يحتوي على مقولات السبب ، الضرورة ، الصدفة ··· الخ ، التي بواسطتها يضع نظاما في عالم الظواهر الطبيعية الفوضوي · وتتشابه

---

١ ـ لينين ـ دفاتر فلسفية ·

وجهات نظر المثاليين الذاتيين المعاصرين ، وخاصة الوضعيين المحدثين ، مع هذه النظرة ، فاعتبروا ان المقولات هي مفاهيم عامة مرتبطة ، ليس فقط مع الانطباعات المحسوسة ، بل لا علاقة لها مع العالم الموضوعي الموجود خارج الانسان · وهيجل ، المثالي الموضوعي ، الذي كان يقر لفظا بالخاصة الموضوعية للمقولات ، كان ، في الحقيقة ، يعتبرها مثل درجات في تطور الفكرة المطلقة ، في الروح الشاملة ·

ان مفاهيم المثاليين عن المقولات هي غير منطقية تماما · اذ تبرهن الممارسة العملية، وتطور العلم ، والتجربة الشخصية على ان المقولات لم تبتكر ، بل اكتشفت في الواقع الموضوعي ذاته ·

ويشكل ترابطها وقدرتها على التبدل وعلى التحرك سمة هامة اخرى · أذ تعكس هذه السمات وحدة العالم المادي نفسه ، والعلاقات الشاملة وتفاعل هذه الموضوعات والظواهر · والعلاقة بين المقولات متينة بحيث تستطيع التحول من واحدة الى اخرى ، في بعض الشروط · فيصبح السبب نتيجة ، والنتيجةسببا، وتصبح الضرورة صدفة ، والصدفة ضرورة ، ···الخ ولكن المقولات في كونها مترابطة بعلاقات متبادلة .تكون ايضا متغيرة ، متحركة فتغير نفسها ، وهي تعكس العالم المادي المتطور باستمرار ·

ان ما يلفت النظر عندما نبدأ بدراسة العالم المادي، هي الظواهر والموضوعات الخاصة التي لا تحصى · ثم يستخلص الانسان ، عند مقارنتها وتقريبها من بعضها ، السمات والعلاقات المشتركة ، المتشابهة ·

وسنبدأ بتحليل المقولات بمقولتي الخاص والعام : والعام ·

٢ ـ الخاص والعام

تعريف

لكل موضوع سمات خاصة ملازمة له ، فاذا نظرنا مثلا الى شجرة الحور القريبة ، لوجدنا ان لها ابعادا خاصة ، وعددا من الاغصان موزعة بشكل معين ، ومظهرا خاصا لجذورها ، وكذلك خواصا اخرى مميزة ·

وكذلك ، يملك فلان من الناس سمات خاصة . غير موجودة عند غيره ، مثل القدرات والعادات ، الميول وطريقة الكلام ، ··· الخ · وبذلك يتميز هذا الفرد عن مئات ملايين الناس الموجودين على الارض ·

اذا ، تشكل هذه الشجرة ، هذا الانسان ، هذا الموضوع او الظاهرة الملموسة ، الفرد ، الخاص ·

غير ان الفرد او الخاص لا يكونان منعزلين ، ودون اية علاقة مع بقية الموضوعات والظواهر · فالانسان نفسه يقطن على الارض محاطا بملايين الافراد الاخرين · ويكون مرتبطا معهم بالاف الروابط المختلفة، كما تكون له سمات مشتركة معهم · فهو يعمل في هذه المهنة او تلك،اي ان له كل السمات التي عند جميع الذين يعملون في مهنته واختصاصه · كذلك ، ينتمي الانسان الى طبقة ، الى قومية ، اذا له خواص هذه القومية

وهذه الطبقة . ولكنه يملك في الوقت نفسه السمات المشتركة لكل الناس مثل البنيةالتشريحية والفزيولوجية والقدرة على الاحساس والتفكير ، على العمل والكلام، وبالاضافة الى خواصه الفردية ، لكل موضوع خواص مشتركة مع الموضوعات الاخرى.

فالعام اذا ، هو الشيء المشترك في عدة موضوعات خاصة فردية . واذا كانت السمات الفردية تميز موضوعا عن الموضوعات الاخرى ، فان العام يضمه الى هذه الموضوعات ، ويربطها ببعضها ، ويحدد انتماءها الى نوع او الى فئة محددة من الموضوعات المتشابهة .

ديالكتيك الخاص والعام

يشكل الخاص والعام ، مثل كل موضوع ، وحدة ديالكتيكية . فمن جهة يحتوي الخاص والعام ، وكما قال لينين « فهو لا يوجد الا في العلاقة التي تؤدي الى العام » . ويكون جسم فردي مرتبط بالعام ، اي النوع الذي ينتمي اليه والذي يملكواياه سمات مشتركة ، وعن طريق النوع يملك ما هو اشمل مع الفصيلة .. وتعتر المادية الديالكتيكية بعد اخذها بعين الاعتبار العلاقة بين الخاص والعام ، ووجود العام في الخاص، ان كل خاص هو في الوقت نفسه عام بشكل او بآخر .

ومن جهة أخرى ، لا يوجد العام الا في الخاص ، اي من خلاله . كذلك لا توجد الاصناف النباتية او الحيوانية خارج الافراد . ولا يشمل النوع ، الذي هو عام بالنسبة للفرد ، كل سمات الاجسام الفردية ، بل فقط السمات الاساسية المتكررة . لهذا السبب دعا

لينين كل عام بجوهر الخاص ·

ولا يكون العام والخاص مرتبطين فقط بل يبغيران باستمرار · اذ ان الحدود التي تفصل بينهما غير ثابتة فيتحولان بصورة متبادلة اثناء التطور ، وضمن شروط معينة : يصبح الخاص عاما والعكس بالعكس ·

في اثناء تطور الاجسام ، تنتقل احيانا خاصة مفيدة مكتسبة من قبل احد الافراد الى الخلف وتصبح فيما بعد ملك الجميع ، ملك عدد كبير من الافراد ، اي تتحول الى خاصة عامة تخص النوع كله . وتضمحل كل خاصة عامة فقدت اهميتها في نشاط النوع الحيوي ، وتضمر تدريجيا ولن توجد الا نادرا في الاجيال التالية ، اي فقط في الاجسام الخاصة ، انها ردة ورائية ، عودة الى التنظيم السلفي · هنا ، اصبح العام خاصا ·

ونجد كذلك ديالكتيك العام والخاص في الظواهر الاجتماعية ايضا · وهاكم مثالا على ذلك : في ربيع عام ١٩١٩ ، نظمت مجموعة من عمال فرز محطة موسكو « سبتا شيوعيا » (١) · فكان عمال المحطة يقومون في ساحات الراحة ، وبدون اجر اضافي ، بتصليح القاطرات والحافلات ، وبأعمال التعبئة والتفريغ · فدشنت هذه الحادثة الفريدة المباراة

---

١ ـ السبت الشيوعي ـ كان عملا تطوعيا في ايام المعطل من اجل بناء الجمهورية السوفياتية · ولقد دعي هذا النوع من المعمل « السبت الشيوعي » لانه نظم لاول مرة يوم سبت ·

الاشتراكية التي تحولت ، فيما بعد ، الى طريقة عامة في البناء الشيوعي ، الى قانون تطور الاشتراكية والشيوعية . وهنا اصبح الخاص عاما .

دور مقولتي الخاص والعام في الممارسة العملية

من اجل النشاط العلمي والعملي ، يهمنا معرفة ديالكتيك الخاص والعام . ولا يمكننا ان نرى بوضوح كل تعقيد العمليات ولا ان نوضح قوانين تطورها ونستخدمها بشكل صحيح في النشاط العملي ، الا بعد معرفة العلاقة بين ديالكتيك الخاص والعام . ومن جهة اخرى ، فان معرفة العام وعلاقاته مع الخاص هي اساس التنبؤات العلمية ، فهي لا تتيح فقط توضيح السمات الهامة لبعض الموضوعات والظواهر، وبتحديد الطرق والاتجاهات الاساسية لتطورها ، بل تتيح ايضا التنبؤ بوجود موضوعات اخرى وعمليات خاصة لا نعرفها حتى الان . فمثلا كان مانديليف قد تنبأ على قانونه الدوري للعناصر الذي وضح خواصها الاكثر شمولية، بوجود أربعة عناصر كيماوية لم تكن معروفة. واستطاع اعطاء خواص ثلاث منها بالتفصيل .وبالفعل فقد تم اكتشاف هذه العناصر الثلاثة (غاليوم ، سكانديوم ، جرمانيوم) بعد فترة من الزمن .

من المهام الاخذ بعين الاعتبار تفاعل العام والخاص في الحياة الاجتماعية ، وعلى وجه الخصوص الحياة في هذه الايام التي تقوم فيها الانسانية بخطواتها الكبرى في الانتقال من الرأسمالية الى الشيوعية ، ويتعلق نجاحها بالحلول المجدية المقدمة لمسألة العلاقة بين القوانين العامة للثورة الاشتراكية وخواصها الوطنية.

ولهذا السبب يدور الان صراع حاد حول هذه المسألة .

يتجاهل المحرفون في ايامنا هذه التطابق مع القوانين العامة للتطور الاشتراكي ، ويصوغون بشكل مجرد الخاص والظروف الوطنية الحقيقية في البلدان المختلفة. فيعارضون النظريات الاشتراكية العلمية بمفاهيم الاشتراكية الوطنية المنافية للعلم ، مما يعني رفض الثورة الاشتراكية وخيانة مصالح الطبقة العاملة .

كما يتجاهل - ايضا - انصار الدغماتية ضرورة الاخذ بعين الاعتبار في الثورة الظروف التاريخية الواضحة ، ويعتبرون ان الثورة تتم وفق مخطط موضوع مسبقا ، في كل مكان وزمان ، ويساعد هذا الرأي على التقليل من مبادرة الجماهير المبدعة ، ومن ايمانها في الاشتراكية ، وبذلك تخلق مصاعب خطيرة امام تطورها .

انتقدت اراء المحرفين والدغماتيين بعنف في بيان مؤتمر ممثلي الاحزاب الشيوعية والعمالية العالمية في عام ١٩٥٧ ، اذ اشار هذا البيان الى ان احلال الاشتراكية محل الرأسمالية في كل البلدان هو عملية ثورية فريدة تتطلب بصورة مبدئية احترام قوانين هامة جدا . ثم اشار البيان الى هذه القوانين :

- قيادة جماهير الشغيلة من قبل الطبقة العاملة التي يشكل الحزب الماركسي - اللينيني نواتها ، واتمام الثورة البروليتاريا بهذا الشكل او ذاك واقامة ديكتاتورية البروليتاريا بهذه الصورة او تلك .

ـ اتحاد الطبقة العاملة وجماهير الفلاحين الاساسية وبقة الفئات العاملة ٠

ـ القضاء على الملكية الرأسمالية واقامة الملكيــــة الجماعية لوسائل الانتاج الرئيسية ٠

ـ التحويل الاشتراكي التدريجي في الزراعة ٠

ـ التطوير الملائم لخطة الاقتصاد الوطني الموجهــة نحو بناء الاشتراكية والشيوعية ، ورفع مستوى حياة العمال ٠

ـ الثورة الثقافية في المجال الايديولوجي والثقافة وتكوين اعداد من العمال المثقفين المتفانين في سبيــــل الطبقة العاملة والشعب وقضية الاشتراكية ٠

ـ انهاء الاضطهاد القومي واقامة مساواة في الحقوق وصداقة اخوية بين الشعوب ٠

ـ الدفاع عن مكتسبات الاشتراكية ضـــــد اعداء الخارج والداخل ٠

ـ تضامن الطبقة العاملة في الوطن مع الطبقةالعامنة لكل البلدان : الاممية البروليتارية ٠

ولا تتجاهل الماركسية اللينينية ، وهي تشدد علــى الزامية هــــذه القوانين الرئيسيـــــة في الانتقال الى الاشتراكية ، الخصائص الوطنية لكل بلد ٠ بل علــى العكس ، تصر على رؤيتهابصورة بناءة وضمنالظروف التاريخية الواضحة ٠ ولا يكون التطور الاقتصادي على مستوى واحد في كل البلدان وكذلكنسبة القوى الطبقية٠

كما تختلف التقاليد التاريخية والوطنية · مما يؤكد اصالة وخاصية في تطبيق اشكال وطرق البنـــــاء الاشتراكي ، وفي وتيرة الاصلاحات الاشتراكية ·

لقد عرفنا الخاص واظهرنا عدم انفصاله عن العام· والان سنعمق ونوضح مفاهيمنا عن الخاص ، ونحلل ماهية الموضوعات والاشياء والظواهر الخاصة التي يصادفها الانسان بشكل مستمر·

وان مقولتي المضمون والشكل هما اللتان تعطيان مفهوم الموضوع المحدد ·

٣ ـ المضمون والشكل

التعريف

المضمون هو مجموعة العناصر والعمليات التي تكون موضوعا او ظاهرة · والشكل ، هو بنية ، تنظيم المضمون ، وليس هو شيئا خارجا عنه ، بل ملازما له·

تكون الجسيمات البسيطة والعمليات آلتي تساهم في حركتها مضمون ذرة عنصر كيماوي · اما تنظيم هذه الجسيمات وترتيبها داخل الذرة فيكون شكلها · وكذلك فان استقلاب وانفعالية وقابلية المتقلص ،··الخ، والاعضاء والنسج والخلايا التي تجري فيها هذه العمليات هي مضمون جسم حي · اما الطريقة التي تجري فيها هذه العمليات الحيوية في الجسم ، وبنية هذه الاعضاء والنسج ، فهي شكل الجسم ·

لكل ظاهرة اجتماعية مضمون وشكل · فتكون القوى المنتجة (الناس والادوات) مضمون اسلوب انتاج تاريخي معين · اما علاقات الانتاج (العلاقات بين الناس في اثناء الانتاج القائم على علاقاتهم تجاه هذه الادوات) فتكون شكله ·

وتستند المادية الديالكتيكية في بحثها على وحدة المضمون والشكل، وعلى عدم انفصالهما لآنهماملازمان لمضوع معين · وليس هنالك مضمون مجرد ، بل فقط مضمون له شكل محدد · وكذلك لا يوجد شكل مجرد دون مضمون · فللشكل دائما مضمون ، انه يفترض

وجود مضمون ما لانه يعتبر تنظيمه وبنيته ·

الدور الحاسم للمضمون والدور الفعال للشكل

بعد ان اظهرنا ان كل موضوع مكون من وحدة الشكل والمضمون الوثقى ، لندرس كيفية ترابطهما مع بعضهما وما هو اثرهما في عملية التطور ·

المضمون فعال جدا ، ويتغير باستمرار ، بموجب التناقضات الملازمة له ، ثم يؤثر على الشكل ايضاوفق تغيراته · اذا ، فالشكل تابع للمضمون ·

واذا ما درسنا تطور الانتاج الاجتماعي انه يبدأ دائما بالمضمون ، بالقوى المنتجة · وفي سبيل الحصول على قسط اكبر من الخيرات الممكنة ، يحسن الناس باستمرار ادوات الانتاج ، ويرفعون من كفاءاتهم ، مما يؤدي حتما الى تغيير اشكال الانتاج الاجتماعي : **علاقات الانتاج** ·

وفي الظواهر الاجتماعية ايضا يكون الشكل تابعا للمضمون · ولقد برهنت البيولوجيا على انه عندما تتغير ظروف وجود جسم حي ، فان اول شيء يتغير فيه وظائفه : طراز الاستقلاب وعمليات اخرى ، التي تشكل مضمون الحياة ، كما تتشكل بروتينات جديدة اخرى ··· الخ · ثم فيما بعد ، يتغير شكل الجسم الحي وبنيته وتنظيمه ، على اساس تغيرات مضمونه · فمثلا ، اذا نقلنا نبتة من مناخ رطب الى مناخ اقل رطوبة ، تتغير خاصته في تبادل المواد ، بشكل يسمح فيه هذا التغير للجسم بتلقي ، في الظروف الجديدة ، رطوبة اكثر وان ينفق اقل · وبالتالي تتغير بنية الجسم:

تدخل جذور النبتة الى عمق اكبر في الارض لكي تحصل على رطوبة اكثر ، وتصبح اوراقها اكثر ضيقا مما يؤدي الى نقص في التبخر ·

على الرغم من تبعية الشكل للمضمون ، فانه لا يبقى سلبيا تجاهه · لذا يؤثر عليه بنشاط ، فيساعد او يعرقل تطوره · واذا ما تلاءم شكل جديد مع مضمونه فانه يساعد على التطور وعلى التقدم · بينما يعرقل تطور المضمون كل شكل فان لم يعد يتلاءم معه · واذا ما عدنا الى تطور الانتاج الاجتماعي ، ضمن سياق هذه الافكار ، لاقتنعنا بان شكله ـ علاقات الانتاج ـ لا يتعلق بالمضمون فقط ، بل يقوم ايضا بدور فعال في تطوره · وهكذا ، تحقق علاقات الانتاج الطليعي الاشتراكية وتيرة لا سابق لها في زيادة الانتاج الصناعي والزراعي ، وازدهار كل الاقتصاد الاشتراكي · اما بالنسبة لعلاقات الانتاج الرأسمالية المعاصرة فانها تعرقل تطور القوى المنتجة كما تسبب دمارها احيانا · وينتج من ذلك اننا لا يمكننا تجاهل دور واهمية الشكل في التطور ·

ويجب ان لا ننسى عندما نحلل تفاعل الشكل والمضمون انه يمكن لمضمون ما ان يتطور باشكال مختلفة ، وفقا للظروف ·

واليوم ، تعرف الحركة الشيوعية العالمية عدة اشكال لديكتاتورية البروليتاريا ، اي مضمون فترة الانتقال من الرأسمالية الى الاشتراكية · ففي الاتحاد السوفياتي ، كانت سوفياتيات مندوبي العمال هي شكل ديكتاتورية البروليتاريا ، وكانت الديمقراطية الشعبية،

شكل هذه الديكتاتورية في بقية بلدان المنظومة الاشتراكية العالمية · وكذلك فلا يجب استبعاد امكانية ظهور اشكال جديدة لديكتاتورية البروليتاريا في المستقبل ·

ويدعم تنوع الاشكال المضمون ، ويغنيه وينوعه ، ويسمح له بالتطور في كل الظروف المختلفة · لذا فانه من الهام جدا ، في اثناء النضال الثوري وبناء الشيوعية، انتقاء الاشكال التي تتلاءم بصورة افضل مع الظروف التاريخية الواضحة ·

التناقضات بين الشكل والمضمون

من اجل الحصول على مفهوم افضل عن العلاقة بين المضمون والشكل ، فانه من المهم جدا **توضيح الخاصة** المتناقضة لهذه العلاقة ·

لقد ذكرنا ان الشكل ، على خلاف المضمون ، اكثر ثباتا واقل حركة·كما يتأخر تطوره عن تطور المضمون· فالشكل يهرم ويدخل في تناقض مع المضمون · ويؤدي عادة التناقض بين شكل قديم ومضمون جديد الى رفض الشكل القديم واستبداله بشكل جديد ، بحيث يستطيع بفضله المضمون الجديد التطور بحرية ·

وهكذا ، وعندما تتغير الظروف ، يرى الجسم نفسه مرغما على تمثل مواد غذائية جديدة · لذلك يتغير بسرعة مضمون الجسم ، اي طراز الاستقلاب الخاص به ، وكل نشاطه الحيوي · بينما يتأخر تطور شكل الجسم ، بنيته ، عن المضمون ، ويدخل في تناقض معه · ويتم تسوية هذا التناقض بفضل تغير

بنية الجسم الذي يصبح اكثر ملاءمة مع المضمون الجديد • اذ تضمر بعض اعضائه القديمة بينما تتشكل اخرى جديدة • فمثلا ، عندما تنتقل الاجسام الحية من الحياة المائية الى الحياة البرمائية ، تتحول الفلاصم ، شيئا فشيئا ، الى رئات ، كما تظهر له اعضاء جديدة بدلا من الزعانف ، ••• الخ •

والتطور الاجتماعي ايضا يعرف تناقضات بين المضمون والشكل • ويعتبر مثال تطور الانتاج الاجتماعي دليلا ساطعا على ذلك •

ففي اثناء التطور ، يدخل المضمون الجديد (القوى المنتجة) في تناقض مع الشكل البالي (علاقات الانتاج) • ويتم تسوية هذا التناقض بفضل استبدال علاقات الانتاج البالية بعلاقات جديدة ، والسماح للقوى المنتجة بأن تتطور دون عراقيل • وهكذا ، دخلت قوى الانتاج – الانتاج الاجتماعي المكنن الكبير – ، اثناء تطور المجتمع الرأسمالي ، في تناقض مع علاقات الانتاج القائمة على الملكية الخاصة الرأسمالية • ولقد حل هذا التناحر ، في روسيا ، بالثورة الاشتراكية التي استبدلت الشكل القديم للانتاج الرأسمالي بعلاقات انتاج قائمة على ملكية اجتماعية مشتركة • وينتظر حل التناقض بين شكل ومضمون الإنتاج الاجتماعي ، في البلدان الرأسمالية •

وفي ظل الاشتراكية ايضا ، نصطدم بتناقضات بين شكل ومضمون الانتاج الاجتماعي • ولكن هذا التناقض لا يأخذ طابعا تناحريا ، ويتم تجاوزه بنجاح بفضل جهود الشعب السوفياتي الذي يقوده الحزب

الشيوعي ·

وبتجاوزهم هـــذا التناقض وتناقضات ومصاعب اخرى ، يستبعد السوفياتيون الاشكال القديمة البالية التي تعيق البناء الشيوعي · كماتتحسن باستمرار ، من جهة اخرى ، كل اشكال حيـــاة المجتمع الثقافية والسياسية والاقتصادية ·

لقد حددنا مضمون وشكل الموضوع · ولنر الان اذا كانت كل هذه العناصر متعادلة ، وتقوم بالدور نفسه في وجود وتطور المعطى المعين ·

اذن ، لندرس مقولتين الجوهر والظاهرة ·

٤ ـ الجوهر والظاهرة

تعريف

يقترب مفهوم الجوهر من مفهوم المضمون ، ولكن لا يماثله · واذا كان المضمون يمثـــــل مجموع كل العناصر والعمليات التي تكون الموضوع ، فان الجوهر هو المظهر الرئيسي ، الداخلي ، المستقر نسبيا (او مجموع هذه المظاهر والعلاقات) · وان الجوهر هــو الذي يحدد طبيعة الموضوع ، وكل المظاهر والخواص الناجمة الاخرى ·

وهكذا يكون الاستقلاب ، خاصة الجسم الحي ، جوهره · فهو اساس كل الوظائف الحيوية ، انـــه الطبيعة الجوهرية لكل جسم حي · وكما قال انجلز :

« ينتج من تبادل المواد هذا الذي يتم عن طريق التغذية والطرح في كونه وظيفة اساسية للالبومين ··· كل بقية عوامل الحيـــاة البسيطة : الانفعالية ، قابلية التقلص ، القدرة على النمو ، الحركة الداخلية » (١)

ويعبر الجوهر ايضا ، في الظواهر الاجتماعية ، عن المظاهر الداخلية الاساسية للعمليات · وقــد عــرف لينين الامبريالية ، المرحلة العليا من الرأسمالية ، على انها رأسمالية الاحتكارات · انها سيطرة الاحتكارات،

---

١ ـ فريدريك انجلز ـ ضد دوهرينغ ·

التي جاءت محل المزاحمة ، التي تشكل جوهر الامبريالية · والامبرياليون في سباقهم للحصول على ربح اكبر ، يقومون بتشكيل اتحادات احتكارية دولية تقسم العالم الى مناطق نفوذ ، فتصدر رؤوس الاموال عوضا عن السلع ، كما تزيد من حدة استغلال عمال بلدانها وشعوب المستعمرات التابعة لها · عند ذلك تزداد تناقضات الرأسمالية الى حدها الاعلى · والامبريالية ، هي عشية الثورة الاشتراكية ·

اما جوهر المجتمع الاشتراكي فهو الملكية الاشتراكية السائدة ، والاقتصاد المخطط ، وزوال الاستغلال ، والصداقة والتعاون بين افراد المجتمع ، وسد حاجاتهم المادية والثقافية بفضل تطوير وتحسين الانتاج على اساس تقني عال ·

وما هي الظاهرة ؟

هي التعبير الخارجي والمباشر للجوهر ، انها شكل ظهوره · ويظهر تبادل المواد ، جوهر كل ما هو حي ، في الظواهر المختلفة · فنجدها في كل الاصناف النباتية (حوالي ٥٠٠ الف صنف) والحيوانية (١٥٠٠٠٠٠ صنف) · وتتميز كل هذه الاصناف بمظهرها الخارجي ودرجة تطورها ، كما انها تتغذى وتنمو وتتكاثر بأشكال مختلفة ·

ويتجلى يوميا جوهر الاشتراكية في الحياة السوفياتية : في بناء المعامل الكبرى، في بناء مراكز توليد الطاقة ، في التقدم التقني السريع ، في كل فروع الاقتصاد المتنوعة ، في وتيرة بناء المساكن والمراكز الثقافية ، في تخفيض ساعات العمل اليومي ··· الخ·

ديالكتيك الجوهر والظاهرة

بعد ان عرفنا الجوهرة والظاهرة لنبحث في ماهية علاقتهما :

تؤكد المادية الديالكتيكية ، وقد عممت انجازات العلم والممارسة العملية ، على وحدة الجوهر والظاهرة ، فهما مترابطان ومتحدان بصورة وثيقة · وقد كتب لينين يقول : الجوهر ظاهراتي ، والظاهرة جوهرية · وتنتج الظاهرة ايضا من الجوهر ، وذلك عندما تظهر في الواقع المباشر · وان ما يشكل الظاهرة هي المظاهر الخارجية ، السطحية ، والخواص ، اللحظات · اما الجوهر فهو الظواهر نفسها للحظات نفسها ، المظاهر المتنوعة نفسها ، ولكن في حالتها الاكثر استقرارا وعمقا وشمولية · وقد قارن لينين الجوهر بنهرٍ هادىء نسبيا، ولكنه عميق وسريع ، بحيث تظهر على سطحه دوامات وزبد على شكل أمواج :

« ··· المزبد في الاعلى والتيارات العميقة في الاسفل · فالمزبد اذن هو تعبير عن الجوهر » (١)

يتجلى الجوهر بالضرورة في كل ظاهرة ، ولكنليس بشكل كامل ، لان الظاهرة ليست سوى جزئية· اي انها ليست الجوهر كلها ، فهي لا تعبر سوى عن ميزة خاصة له · ومثال ذلك ، الرواتب التقاعدية الجديدة المرتفعة

---

١ ـ لينين ـ دفاتر فلسفية ·

في الاتحاد السوفياتي ، فهي لا تعبر سوى عن مظهر واحد فقط من جوهر الاشتراكية : اهتمام الدولــــة السوفياتية بأفرادها المسنين ·

ولا يوجد ، من جهة اخرى ، جوهر مجرد لا يكشف عن شيء · فكل مادة تتجلى بعدد كبير من الظواهر · وكما ذكرنا ، فان جوهر الاشتراكية يتجلى بعدد كبير من احداث ووقائع الحياة الاشتراكية ·

ولا يرى الجوهر على السطح ، فهو مستتر ولا يرى مباشرة · ولا يمكننا ملاحظته الا بعد دراسة طويلة · وقد كتب ماركس يقول :

« اذا كانت تلتقي مباشرة طريقة الظهور وجوهر الاشياء ، فلا ضرورة للعلم » ·

ففي الحقيقة نجد جوهر العلوم خلف اعداد مــن الظواهر ، خلف المظاهـــــر السطحية ، خلف مظاهر الواقع ، ومهمتها اكتشاف العمليات الداخلية العميقة الموجودة في اساسها ·

اهمية الجوهر والظاهرة

انه من الهام جدا معرفة ديالكتيك الجوهر والظاهرة من اجل الحياة والعلوم والممارسة العملية ·

يدرك رجال العلم انه بالرغم من تعقيد عملية المعرفة، يمكن اكتشاف جوهر الظواهر المستتر في الاعماق · لقد راقب العلماء طويلا الشمس فاكتشفوا بفضل بعض الاجهزة ، بقعا ومقذوفات غازية ، والتقطوا سيلا مــن الجسيمات المختلفة . ولكن كل ذلك لم يعلم بصورجيدة

عن جوهر العمليات العميقة التي تجري في الشمس ، وعن مصدر الطاقة الشمسية . وأخيرا تمكن العلـم من اكتشاف جوهر هذه العمليات ، بعد أبحاث طويلة : انه تفاعل نووي حراري (تشكل الهيليوم من الهيدروجين) يتم في الشمس . فينتج عن هذا التفاعل طاقة حراريـة كبيرة جـدا .

ان معرفة الجوهر ضرورية ، لان الظواهر تعطي غالبا، آراء خاطئة عن العمليات . اذ نشعر مثلا ، أن الشمس تدور حول الارض ، بينما الحقيقة هي عكس ذلك تماما . كذلك نتوهم أن الديمقراطية تسود العالم الامبريالـي : الانتخابات العامة ، حرية الكلام ، الصحافة والاحزاب والتجمعات السياسية ،... الخ . ولكن الديمقراطيـة السائدة في الدول الامبريالية ليست في الحقيقة سـوى مظهر خادع . اذ أنها ديمقراطية محدودة ، ديمقراطية للاغنيا فقط .

ولا يمكن أن تقدم معرفة قائمة فقط على المظاهـر الخارجية لوحة صحيحة للعالم كما لا يمكنها أن تكون دليل عمل . اذ عندما لا نستطيع تمييز الظاهرة من الجوهر ، نقع في أخطاء فادحة نظرية وتطبيقية .

لقد قدم مؤسسو الماركسية ـ اللينينية طرقا متجددة دائما في تحليل جوهر الظواهر الاجتماعية . فكـان اكتشاف **ماركس** جوهر الانتاج الرأسمالي حدثا هاما في تطور الفكر الاجتماعي .

وقد أكد ، وما زال يؤكد ، اقتصاديو وعلماء الاجتماع البرجوازيون ، الذين اكتفوا بدراسة الظواهر ، المظاهر،

على عدم وجود استغلال في المجتمع الرأسمالي ، وأن العامل يأخذ من الرأسمالي كل ما ربحه . وليس أصل الربح ، في رأيهم ، استغلال العمال ، بل رأس المال نفسه الذي يوظفه الرأسمالي .

ولكن ما الذي يجري في الحقيقة ؟

يحتاج العامل لكمية محددة من الموارد من أجل حياته هو وحياة أسرته . ولكي يحصل عليها ، عليه التقدم من الرأسمالي ليبيعه قوة عمله . وهذا يعني ، للوهلةالاولى، اتفاقا عاديا بين العامل والرأسمالي : بيع — شراء . العامل يبيع قوة عمله والرأسمالي يشتريها : العامل يعمل والرأسمالي يدفع له أجرا .

هذا هو مظهر الاتفاق « العادل » الذي تم بين الرأسمالي والعامل ، على سطح العلاقات الرأسمالية. ولقد استنتج خطأ أيديولوجيو البرجوازية عدم وجود استغلال في الرأسمالية ، بالاستناد الى هذا الاتفاق . انهم لا يريدون رؤية الجوهر الحقيقي للانتاج الرأسمالي.

لم يكتف **ماركس** في تحليل الظواهر السطحية . فاكتشف ، من خلف هذه الظواهر ، من خلف مظهر الاتفاقيات بين الرأسمالي والعامل، الجوهر الاستغلالي للانتاج الرأسمالي . وأثبت أن قوة العمل هي سلعةمن نوع خاص ، قادرة على انتاج قيم مادية أعلى بكثير من الاجور التي يدفعها الرأسمالي . أما الرأسمالي فلا يعوض سوى قسم من قيمة العمل ، بينما يستحوذعلى القسم الاخر الذي دعاه **ماركس** بفضل القيمة . هذا هو الاصل الوحيد للربح الرأسمالي .

ـ كان لاكتشاف ماركس جوهر الاستغلال الرأسمالي بعد تاريخي كبير . إذ أتاح توضيح اساس التناحر بين البرجوازية والبروليتاريا ، واظهار استمرارية الصراع بينهما الذي سيؤدي في النهاية الى الثورة الاشتراكية، الى نهاية الرأسمالية .

ويثبت هذا المثال الكلاسيكي في دراسة الظواهر الاجتماعية أهمية التوصل الى الجوهر بالنسبة للعلوم والتطبيق الثوري .

لقد عرفنا اذا الخاص والعام ، المضمون والشكل ، الجوهر والظاهرة ، أي ما يعلمنا عن الموضوع والظاهرة . ولكننا نعلم أن الموضوعات والظواهر ليست منفصلة ، انها في ترابط ، ولا يمكن فهم احداها بصورة منعزلة . وتعني دراسة موضوع ، المرتبط بعلاقات مع الموضوعات الاخرى ، قبل كل شيء ، توضيح سبب ظهوره .

٥ ـ السبب والنتيجة .

تعريـــف

نلاحظ في العالم الموضوعي تفاعل الظواهر المستمر، الذي تولد بفضله بعض الظواهر ظواهر أخرى ، وهكذا دواليك . فيولد مثلا الاحتكاك الحرارة التـــي تسبـــب الجفاف ، سبب المواسم السيئة ... الخ . وتؤثـــر الظواهر أيضا علـــى بعضهـــا البعض ، في الحـــياة الاجتماعية . فقد سببت حركة التحرر الوطني لشعوب المسحوقة انهيار النظام الاستعماري للامبريالية .

تدعى الظاهرة أو مجموعة الظواهر التي تسبـــق ظاهرة أخرى وتحدثها ، السبب ، والظاهرة المحدثـــة للسبب ، النتيجة .

ويسبق السبب دائما النتيجة.وليس التعاقب في الزمن خاصة كافية في تحديد السبب . فالنهار ، مثلا ، يتبع الليل . وليس الليل سبب النهار . اذ أن تعاقب الليل والنهار سببه دوران الارض حول محورهـــا . اذن لا توجد علاقة بين سبب ونتيجة في ظاهرتين . اذا مـــا سبقت فقط الاولى الثانية ، بل اذا ولدتها أيضا .

يجب أن لا نخلط بين السبب والحجـــة (الذريعة) . فالذريعـــــة أو الحجـــــة ، هـــي الحدث الـــذي يسبـــــق النتيجة مبـــاشرة ، أي ليست سببهـــا بل تكتفي فقط بتحريكها . لقد كان مقتل فردينالد ولي عهد النمسا في سيراجيفو ، في حزيران ١٩١٤ ، ذريعة فـــي

اندلاع الحرب الكونية الاولى · بينما كان سببها الحقيقي التناقضات بين القوى الامبريالية ·

كما يجب ان نميز ايضا بين السبب والظروف الموجود فيها : العمل المنتج هو سبب كل الثروات الاجتماعية · غير انه من اجل ان يخلق العمل الثروة ، يجب ان يكون هنالك موضوع للعمل ، وأدوات للعمل بها · ولكن لا تخلق الادوات ولا موضوع العمل ، بمفردها ، الثروة، على الرغم من كونها الشرط الضروري للنشاط الانساني العملي ·

نقد مفاهيم السببية المعادية للماركسية

تتسم السببية ، في العالم المادي، بصفة عامة شاملة· فلا توجد ولا يمكن ان توجد ظاهرة دون سبب ، فلكل شيء سبب ، « لا دخان بلا نار » ، كما يقول المثل الشعبي · والسببية موضوعية ، وهي غير دخيلة على الواقع من قبل عقل الانسان او من قبل قوة فوق الطبيعة · فهي ملازمة للواقع وقد اكتشفها الانسان من خلال المعرفة والممارسة العملية ·

ويتعارض المفهوم المادي الديالكتيكي للسببية مع المفاهيم الدينية التي تجعل من الله سبب كل شيء ، انه خالق نظام الكون وهو الذي يغيره وينتهكه عن طريق العجائب · وان ارادة الله هي السبب الاول لكل شيء · ان الدين يبشر بمفهوم غائي للعالم اي ان تطور العالم هو اتمام لغايات فوق الطبيعة ، محددة مسبقا· وكتب انجلز ساخرا :

« يقول انصار الغائية ان القطط خلقت لتأكل الفئران ، وخلقت

المفئران لتأكلها القطط ، وخلقت الطبيعة لتبرهن على حكمة الخالق » (١)

في الحقيقة ، لا وجود للعجائب ولا للغايات الموضوعة سابقا · ولكن كل شيء يستند الى اسباب طبيعية ، الى قوانين موضوعية · فبالتأكيد لا يمكن ان نحدد للطبيعة هدفا ، اما في المجتمع فيختلف الحال ، لانه تؤثر فيه كائنات واعية ، أناس ، وضعوا لانفسهم اهدافا محددة ويعملون من اجل تحقيقها · لم تحدد هذه الاهداف من فوق ، بل حددتها اسباب موضوعية وتطور التاريخ بمجمله · اذن ، يستند هدف الانسانية على انتظام التطور الاجتماعي ، على معرفة دقيقة للاسباب الموضوعية ·

والنظرية التي تقول بأن سير الاشياء الطبيعي يتعلق بأسباب موضوعية وبقوانين تدعى بالجبرية (الحتمية) · وتعارض الجبرية اللاجبرية (اللاحتمية) . هي مذهب مثالي ينفي الاسباب الموضوعية ، والضرورة والقوانين · كما انها اتجاه مثالي يرجع النظام وأسباب تطور الظواهر الى الوعي ، الى العقل ، وليس الى العالم الموضوعي ·

لا تتناقض فقط المادية الديالكتيكية مع اللاجبرية ، بل ايضا مع الجبرية الميكانيكية التي ترجع كل الاسباب الى تأثيرات خارجية ، ميكانيكية · وقد سادت هذه الجبرية علوم الطبيعة في القرنين السابع عشر والثامن

---

١ ـ انجلز ـ ديالكيك الطبيعة ·

عشر ، عدا علمَ الميكانيك الـــذي عرف انطلاقـــة كبيرة ٠

يمكن تطبيق الجبرية الميكانيكية على دراسة حركة الاجسام المرئية ، علـى الرسوم التقنيـــة للالات ، للجسور ، ٠٠٠ الخ ٠ ولكنه مـــن الخطأ الفادح ان نحاول تفسير العمليات البيولوجية العديدة والنشاط النفسي والحياة الاجتماعية ، استنادا علـى هـــذه النظرة ٠

لا يمكن تطبيق الجبرية الميكانيكية على ميكانيـــك الكانتا (اصغر مقدار من الطاقة يمكن ان يوجـــد مستقلا) ، مجال الفيزياء الجديد ٠ وتتميز الجسيمات الصغيرة جداً التي درسها علـــم ميكانيك الكانتا ، بصورة نوعية عن الاجسام المرئية المتعلقـة بعلـــم الميكانيك الكلاسيكي ٠ فبينما نستطيع تجديد الاحداثيات بدقة استنادا الى قوانين الميكانيك الكلاسيكي ، مـــن المستحيل عمل ذلك بالنسبة للجسيمات البسيطة ٠ وفي العالم الصغير ، حيث قوانين الميكانيك الكلاسيكي غير سارية المفعول ، تسود قوانين علم ميكانيك الكانتا التي تسمح ، في كل ردح من الزمن ، تحديد الاحداثيات او سرعة الجسيمات بصورة تقريبيـــة مـــع بعض الاحتمالات ٠

بعد اكتشاف عدم امكانية تطبيق الحتمية الميكانيكية على الموضوعات الصغيرة جدا ، اعلن خصوم المادية عن انهيار الحتمية بصورة عامة وانتصار اللاحتمية ٠ وصرحوا بان الانسان نفسه ، بملاحظاته وباجراءاته ، هو سبب العمليات غيـر المرئية ٠ ولكـــن الفيزياء

الحديثة اثبتت ان الحتمية تتجلى بصور مختلفة في مختلف المجالات ٠

وتدحض ايضا المادية الديالكتيكية انفصال السبب والنتيجة ، الذي كرسته المادية الميتافيزيقية٠كما اكدت، مستندة على نتائج العلم والممارسة العملية ، على ان السبب والنتيجة مرتبطان بشكل وثيق ٠ فلا نتيجة بدون سبب ، والعكس بالعكس ٠ وتتسم العلاقة بينهما بخاصة داخلية ، ضرورية ٠ اذن تنتج النتيجة من السبب ، انها نتيجة السبب ٠ وعلى الرغم من نشوئها من السبب ، فلا تبقى النتيجة دون تأثير عليه ، بل تفعل ذلك ٠ وهكذا ، فان العلاقات الاقتصادية بين البشر ، خلال الانتاج ، هي السبب ، هي اصل الافكار الفلسفية والسياسية وغيرها ، ولكن هذه الافكار تؤثر بدورها على تطور العلاقات الاقتصادية ٠

كذلك يظهر ايضا ترابط السبب والنتيجة في اشياء تكون في آن واحد سببا ونتيجة ٠ ومثال ذلك ، احتراق الفحم في مراجل مراكز توليد الطاقة الذي هو سبب في تحويل الماء الى بخار ٠ فالبخار ، نتيجة احتراق الفحم، هو في الوقت نفسه سبب حركة دوران مولد التيار المتناوب ٠ ومن جراء هذا الدوران ينشأ تيار كهربائي هو مصدر ، سبب حركة عدد كبير من الالات والاليات التي تعطي الانسان الحرارة ، والضوء ، ٠٠٠ الخ ٠

اذا ، انها السببية التي تميز هذه السلسلة غير المتناهية للعلاقات المتبادلة ، هذا التفاعل الشامل للموضوعات والظواهر ، حيث تكون كل حلقة منها سببا ونتيجة بآن واحد ٠

الدور العملي والعلمي للسببية

يهمنا من اجل العمل العلمي والعملي ، معرفة علاقة سبب ونتيجة الظواهر • ويستطيع الانسان ، بكشفه اسباب الظواهر المفيدة ، اظهـــــار تكوين الظواهر والعمليات المفيـــــدة وتسارعها • فمثـــلا ، يحسن الكولخوزيون والسوفخوزيون الطليعيون ، بعد معرفتهم ان الحراثة الجيدة ، والبذار والحصـــــاد في اوانهما وتدابير اخرى زراعية تقنية هي سبب المواسم الجيدة ، يحسنون الاساليب الزراعية ليزيدوا من محاصيلهـــم بشكل ملموس •

وبمعرفتنا اسباب الظواهر الضـــــارة ، نستطيع اقصاءها وتقليص نتائجها وتدارك اثارها السيئة •

ومن الضروري في النشاط العملي معرفة توضيـــح الاسباب الاساسية للظاهرة • اذ عندمـــــا نحدد الاسباب الاساسية ، نستطيع فهم اصلها وجوهرها ، وتحديد مكانها بين الظواهر الاخرى ، وفهم القوانين التي تنظم تطورها •

والسبب الاساسي ، هو السبب الذي بدونه لا تنشأ الظاهرة • انه يحدد السمات الرئيسية لهذه الظاهرة •

ما هو مثلا ، السبب الاساسي لانتصـــــار الشعب السوفياتي في الحرب الوطنية الكبرى عـــام ١٩٤١ ــ ١٩٤٥ ؟ انه نظام السوفيات الاجتماعي والاداري ،وقوة الجيوش السوفياتية ، وليس كما ادعى البعض ، سعة البلاد او قساوة الشتاء الروسي ، ••• الخ • نعم لقد قامت هذه العوامل بدورها ، ولكنها لم تكـــــن ابدا

الاسباب الاساسية الحاسمة ·

ويسعى الحزب الشيوعي ، آخذا بعين الاعتبارتنوع الاسباب ، الى استنتاج الاسباب الاساسية، الحاسمة· واذا ما عرفنا اختيار الاسباب الاساسية ، نستطيع ايجاد الحلقة الاساسية في سلسلة الحوادث ، الحلقة التي تسمح بحل كل المسائل المطروحة امام الحزب والشعب ، في مثل هذه المرحلة · وكان لينين يعتبر ان فن الانسان السياسي يقضي في ايجاد هذه الحلقة في سلسلة الظواهر الاجتماعية ، والتمسك بها ، وبذلك نضمن نجاح السبب ·

ان الحلقة الاساسية في تطور الاتحاد السوفياتي الاقتصادي هي التقدم التقني السريع · لذا ، فقد نظم الحزب معركة الشعب وقادها من اجل هذا التقدم التقني ·

السببية اذا ، هي العلاقة الاكثر شمولية وعمومية· انها لا تستنفذ كل تنوع علاقات الواقع ، بل تمثل جزءا صغيرا منه · وللعلاقات الضرورية المحتملة دور هام في الشبكة المعقدة للعلاقات بين السبب والنتيجة ·

٦ ـ الضرورة والصدفة

تعريف

لنفهم بسهولة ما تعني مقولتا الضرورة والصدفة ، يجب ان نجيب على السؤال التالي : هل كل الحوادث ضرورية في ظروف معينة ، وهل تجري هذه الحوادث بهذه الطريقة او بطريقة اخرى ؟

نعلم انه عندما نزرع حبة في الارض تنبت اذا وجدت الرطوبة والحرارة الضروريتين . ولكن من الممكن ان يقضي البرد على النبتة فيما بعد . فهل هاتان الحادثتان (الانبات ، وموت النبتة) ضروريتان كلتاهما ؟ ... لا ، لان التجربة اليومية تثبت ان الانبات في ظروف معينة ، اي بوجود الحرارة والرطوبة المناسبتين ، هو ضروري ، اذ ان هذه الخاصة موجودة في طبيعة النبات . ولكن هنالك احتمالا ان يسقط البرد او لا يسقط ، واحتمال في ان يقضي على النبتة او ان يضرها فقط . لان البرد لا ينتج من طبيعة النبات ، كذلك فهو ليس ضروريا في الظروف المعينة .

وتدعى الظاهرة او الحادثة الضرورية (الالزامية) في الظروف المعينة بالضرورة . ويعتبر ، في مثالنا ، انبات الحبة الضرورة . النهار يأتي بعد الليل ، وفصل يأتي بعد فصل اخر . وفي ظل الرأسمالية ، فان نشوء ونمو الحركة الشيوعية للطبقة العاملة ضروريان . لان هذه الظاهرة تعود الى ظروف حياة العمال نفسها ، والى وضعهم في المجتمع ، والى

المهام التي فرضها عليهم التاريخ ·

وتنشأ الضرورة من جوهر ، من الطبيعة الجوهرية للظاهرة · وهي ثابتة ولازمة لحادثة معينة ·

وعلى عكس الضرورة ، فالصدفة ليست ضرورية (في مثالنا ، موت النبتة على اثر البرد هو الصدفة)· ويمكن ان تحدث ، في ظروف معينة ، او لا تحدث ، كما يمكن ان تجري على هذا الشكل او ذاك · ولا تنشأ الصدفة من طبيعة الموضوع ، كما انها انية وغير ثابتة· وليست الصدفة دون سبب ، ولا يكمن سببها في الموضوع نفسه ، بل خارجه ، اي في الشروط والظروف الخارجية ·

ديالكتيك الضرورة والصدفة

ان الصدفة والضرورة مترابطتان ديالكتيكيا ·فحادثة ما هي ، في آن واحد ، ضرورية وممكنة : ضرورية في علاقة معينة ، وممكنة في اخرى · فهذا البرد المحتمل نفسه ، فيما يتعلق بموت النبتة ، هو نتيجة ضرورية لظروف الطقس في المنطقة ·

وعلى عكس انصار الديالكتيك ، ينفي الميتافيزيقيون علاقة الضرورة والصدفة ، فلا يقر بعضهم الا بالضرورة وينفون كل صدفة في التطور · فبرأيهم يتم كل شيء بصورة ضرورية وحتمية ، ويكون الانسان عاجزا عن التدخل في اية صورة من الصور ، ولا يسعه سوى الانتظار سلبيا مجرى الاحداث المحتوم · بينما لا يقر اخرون سوى بالصدفة ، وهذا يعني رفض العلم ونفي امكانية تقدير مسيرة الاحداث وتوجيهها ·

يمكن ان تتحول الصدفة الى ضرورة ، والعكس بالعكس اذا توفرت الظروف الملائمة · ففي المجتمع البدائي ، مثلا ، كان تبادل السلع عفويا ، اذ كانت الجماعة تستهلك بنفسها كل ما كانت تنتجه · ثم توسع تبادل السلع ، منذ ان نشأت الملكية الخاصة وتطورت، واصبح ضرورة موضوعية في الرأسمالية ·

ولا توجد الضرورة والصدفة بصورة منفصلة ، في حالة صرفة (مجردة) ·

فالضرورة التي تساهم في مثل هذه العملية هي الاتجاه الرئيسي ، اتجاه التطور ، ولكن هذا الاتجاه يمهد العقبات من خلال الصدف العديدة · والصدفة تكمل الضرورة ، انها شكل من مظهرها · وتخفي الصدف دائما ضرورة موضوعية ، قانونا · ولنأخذ مثلا كمية من الغاز محبوسة في وعاء · في هذه الحالة تكون جزيئآته في حركة مستمرة غير منتظمة ، وتتصهادم فيما بينها كما تصطدم بجدران الوعاء · غير ان ضغط الغاز على كل جدران الوعاء يكون ثابتا ، وتحدده بالضرورة قوانين الفيزياء · وهكذا ، خلال حركة الجزيئآت العفوية ، تفترض ضرورة تكون أصل الضغط ، وكذلك اصل الحرارة والكثافة وبقية خواص الغاز · والصدفة في التطور الاجتماعي هي ايضا مظهر للضرورة · وتظهر قوانين القيمة ، في الرأسمالية على شكل تقلبات الاسعار في السوق ، تحت تأثير العرض والطلب ·

دور الضرورة والصدفة

يجب على العلم والممارسة العملية ان يأخذا بعين الاعتبار الديالكتيك الموضوعي للصدفة والضرورة ٠ كما يجب على العلم ان يجد خلف الاحداث العديدة والعلاقات العفوية العلاقات الداخليـة الضرورية ٠ وعندما يعرف الانسان قوانين الضرورة الموضوعية ، يتمكن من استخدام العديد من ظواهر الطبيعة والحياة الاجتماعية ٠ اذ على كل علم ان يتوجه قبل كل شيء . بناء على معرفة الضرورة ٠ ونقول ، بهذا الصدد ، ان العلم هو عدو الصدفة ٠ وهكذا ، فان مهمة العلوم الاجتماعية تقضي معرفة الضرورة الموضوعية للتطور. وتغيير النظام الاجتماعي في مصلحة العمال ، علـــى اساس هذه الضرورة المشتركة ٠

ولكن لا يمكن ان ينفي العلم الصدف ٠ وبما انهـا موجودة ، فانها تمارس تأثيرا على عمليات الواقع ٠ فالعلم اذا مرغم على ان يأخذ بعين الاعتبار دورهـــا في التطور ، وحماية الانسان من الصدف الضارة ٠ فمثلا ، تقضي مهمة العلوم الزراعية صياغة الاساليب الزراعية التي تسمح بالحصول على محاصيل عاليـة على الرغم من الكوارث غير المتوقعة (المفاجئة) ٠

وتتغير العلاقة بيـن الضرورة والصدفة وفقـــا للظروف التاريخية ٠ وتحـدد الملكيـــة الرأسماليـــة المسيطرة الاثر (عمل) العفوي للضرورة ٠ ويشق قانون القيمة ، قانون الفوضى والمزاحمة طريقه عبـــر كمية كبيرة من الصدف ٠ لذلك ، لا يستطيع الناس ، في الرأسمالية ، توجيه الحياة الاجتماعية ، وفق مخطط

محدد • فيصبحون ألعوبة عمياء للقوى الثانوية •

ان منظم الانتاج الرأسمالي هو الربح الذي يؤثر عبر كتلة من التقلبات العفوية للاسعار في السوق ، تبعا للتغيرات العفوية في العرض والطلب وتوزيع اليد العاملة • ويولد كل ذلك لدى اعامل عدم الثقة في المستقبل ، اذ من المحتمل ان يكون عاطلا عن العمل ، في اية لحظة ، ومحروما من وسائل العيش • كذلك يكون ارباب العمل الصغار والمتوسطون الذين يتعرضون للافلاس في اية لحظة من جراء منافسة ارباب العمل الاقوياء •

وفي الاشتراكية ، وبموجب قوانينها الخاصة ،يتمكن الناس من رؤية سير الاحداث التاريخية مستقبلا ونشاطها في كل المجالات • فتتجلى هنا الضرورة الاجتماعية من خلال نشاط واع جذري • وتظهر خطط الاقتصاد الوطني في الدول الاشتراكية ، كيف يمكن استخدام الضرورة الموضوعية للتطور الاجتماعي بمهارة •

وبنشاطهم الواعي ، يعمل السوفياتيون الموجهون من قبل الحزب الشيوعي ، على التقليل من دور الصدف • غير ان الاشتراكية تفسح المجال لصدف • فمثلا يعرقل هذا الفرع الصناعي او الزراعي ، بموجب ظروف غير متوقعة ، الخطة الاقتصادية ويعيق تنفيذها ، مما يسبب تفاوتا وعدم تناسق في التطور الاقتصادي • كما يعود سبب هذه الكوارث ، في بعض الاحيان ، الى الظروف الجوية : الجفاف ، سقوط الثلوج ، الفيضانات ، •••
ويهتم الحزب الشيوعي والحكومة السوفياتية في

التقليل الى ادنى حد ممكن اثار الصدف السيئة ·
فيحسنان باستمرار التخطيط وتنظيم الانتاج ،
ويستخدمان الانجازات العلمية ، ويقيمان نظاما قويا
للادخارات الوطنية · وغالبا ما يسبب التسيير غير
الكفء انحرافا في خطة التنمية الموضوعة ، لذا ينصب
جل اهتمام الحزب لتحسين واصلاح ادارة الفروع
الاقتصادية ولتربية الكوادر بروح المسؤولية ·

وتتجلى دائما الضرورة في ظروف موضوعية
محددة · غير ان هذه الظروف نفسها تتغير · وبالتالي
تتغير الضرورة وتتطور · كما ان كل ضرورة جديدة
لا تولد كاملة ، اذ لا توجد في البداية الا مثل امكانية ،
تتغير الى واقع عندما تصبح الظروف ملائمة ·

٧ ـ الامكانية والواقع

تعريف

الجديد ، الذي يتطور ، ضروري ، ولكنه لا يتكون دفعة واحدة · ففي البدء ، تظهر المقدمات ، اي عوامل نشوئه ، فتنضج وتتطور ، واخيرا تكون موضوعـــا جديدا او ظاهرة جديدة ، وفقا للقوانين الموضوعية · ولقد دعيت هذه المقدمات الموجودة في ما هو موجود بالامكانية · فلكل جنين امكانية في ان ينمو ويتحول الى جسم بالغ · لذا ، فان الجسم الحي البالغ الـــــذي تطور من جنين هو حقيقة · فالواقع اذا ، هو امكانيه حقيقية ·

تنتج اذن الامكانيات من القوانيـــن الموضوعية · وهكذا ، يخلق قانون وحدة الجسم والوسط امكانية التأثير الجذري على الجسم وخلق اصناف نباتيـــة وحيوانية جديدة ، وذلكَ بتغيرها الظروف الخارجية · كذلك يجعل قانون التطور المنظم والمتناسق للاقتصاد الوطني في النظام الاشتراكي ، التخطيط ممكنا ··· الخ ··

وكما ان موضوعات وظواهر العالـــــم متناقضة . كذلك تكون الامكانيات ·فنميز الامكانيات التقدميـــة (ايجابية) والرجعية (سلبية) · وتتضمن كل ثورة اجتماعية ، مثلا ، امكانية ايجابية لانتصار القـــوى التقدمية وامكانية سلبية لانتصار القوى الرجعية ·غير

ان الامكانيات التقدمية هي التي تنتصر في نهاية الامر، بموجب القوانين الموضوعية للتاريخ ، بينما لا يكون انتصار الامكانيات الرجعية سوى انتصار مؤقت وآني ٠٠ فمثلا ، كان انتصار الرجعية آنيا في الثورة الروسية التي اندلعت في اعوام ١٩٠٥ ـ ١٩٠٧ ٠ اذ انتصرت اخيرا البروليتاريا ، بعد مرور عدة سنوات ، في العام ١٩١٧ ، متحالفة مع الفلاحين، انتصارا حاسما على القيصرية ثم على البرجوازية ٠

والامكانيات تتطور ، مثل اي شيء في الكون : تنمو، تكبر او تصغر ، وتتقلص ٠ اذ نعلم ان روسيا هي اول من حطم سلاسل الامبريالية ، ولكنها وجدت نفسها محاطة لفترة طويلة بدول امبريالية ٠ لانه منذ انتصار ثورة اوكتوبر الاشتراكية ، برزت الى جانب امكانية انتصار الاشتراكية ، امكانية اعادة الرأسمالية ٠ولكن امكانية انتصار الاشتراكية ازدادت وتحولت الى واقع ، كما تدعمت وقويت بلاد السوفيات٠ وقد اشار برنامج الحزب الشيوعي السوفياتي الى ان الاشتراكية التي تنبأ بقدومها الحتمي علميا ، ماركس وانجلز ، والتي وضع لينين برنامج بنائها ، قد اصبحت واقعا في الاتحاد السوفياتي ٠ بينما تناقصت امكانية اعادة الرأسمالية مع نجاحات بناء الاشتراكية ٠ كما لم يعد لها اي وجود اليوم عمليا ، اذ لا نعرف قوة في العالم قادرة على اعادة الرأسمالية الى الاتحاد السوفياتي ، وسحق معسكر الاشتراكية القوي ٠ ان انتصار الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي كامل ونهائي ٠

ويميز الديالكتيك الماركسي الامكانيات المجردة عن الامكانيات الحقيقية ٠ والامكانية المجردة(الشكلية)

هي الامكانية التي لا يمكن ان تتحقــق ، في الظروف التاريخية المحددة ٠ فمثلا ، ان امكانية اصطدام كواكب النظام الشمسي مع اجرام سماوية اخرى هي امكانية مجردة ٠ لان امكانية حدوث هذا الصدام ضعيفة جدا ٠

ويجب ان لا نخلط بين الامكانية المجردة ، الشكلية مع الاستحالة ٠ اذ لا يمكن ان تحدث الاستحالة ابدا، لانها منافية للقوانين الموضوعية ٠ فمثلا ، لا يمكن ان تتوافق مصالح البرجوازية مع مصالح البروليتاريا ٠ اما الامكانية المجردة فلا تتنافى مع القوانين الموضوعية، ويمكن ان تحدث ، فقط من ناحية المبدأ ، اذا ما توفرت لها الشروط الضرورية ٠

والامكانية الحقيقية (الواقعية) هــي التي تحوز لتحقيقها كل الشروط الضرورية مسبقا ، في سيــاق التاريخ الملموس ٠ فمثلا ، ان امكانية كل الـــدول المستعمرة في تحطيم النير الاستعماري هي امكانيـــة واقعية حقيقية ٠ وهذا ما يحدث اليوم ٠

تكون الفروق بين الامكانية المجردة والامكانيـــة الحقيقية نسبية ٠ فيمكن ان تصبح ، خـــلال التطور ، الامكانية المجردة امكانية حقيقيــــة ٠ فمثلا كانت امكانية السفر بين الكواكب مجردة ، وذلك لعــدم وجود الوسائل التقنية الضرورية ٠ اما في ايامنا هذه، فقد اصبحت هذه الامكانية حقيقية ٠ كما ازدادت واقعية هذه الامكانية بشكل خاص ، بعـــد التحليقات الاولى لرواد الفضاء في الفضاء الكوني ، وبعد الوصول الى القمر ٠ وقد يهبط الانسان قريبا على كواكب شمسية اخرى ٠ وفي بداية القرن التاسع عشر ، كانت احـــلام

الاشتراكيين الطوباويين عن امكانية الانتقال الـــى الاشتراكية احلاما مجردة : لم تكن ناضجة بعد القوة التي ستبني الاشتراكية ، اذ لم تكن البروليتاريـــا الثورية منظمة بشكل كاف . وقد اصبحت هذه الامكانية حقيقية ، في الوقت الراهن ، وواقعا في قسم كبير مـن العالم .

الفصل السادس

نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية

تعتبر المادية الديالكتيكية ، مستندة على التجربة الغنية للانسان ، وعلى أعظم اكتشافات العلم والتطبيق الثوري ، انه يمكن معرفة العالم بشكل كامل وان ذكاء الانسان قادر على استخلاص فكرة حقيقية للواقع المادي ·

ولندرس بالتفصيل عملية معرفة العالم ، ولنر كيف يتم ذلك ·

١ ـ تعريف المعرفة

المعرفة هي انعكاس فعال، متعمد ، للعالم الموضوعي ولقوانينه ، في دماغ الانسان · واصل المعرفة هو العالم المحيط · اذ يؤثر على الانسان فيكون عنده الاحاسيس، والتصورات والمفاهيم المناسبة·فيرى الغابات والحقول والجبال ، ويحس بالحرارة وضوء الشمس ، ويسمع غناء العصافير ويشم روائح الازهار · واذا كانت هذه الموضوعات ، الموجودة خارج وعيه ، لا تؤثر عليه فلن يحصل على اي مفهوم عنها ·

ان معرفة العالم الموضوعي ، موضوعاته وظواهره كمصدر وحيد لمعارفنا هو اساس النظرية الماركسية في المعرفة ·

ان المثاليين لا يعتبرون الواقع اصل معارفنا · فالوعي ، احساس الانسان (الذات) او الوعي الوهمي

الموجود خارج الانسان (الفكرة المطلقـــــة ، الروح الشاملة) هو موضوع المعرفة ، في الفلسفة المثالية ·· وتقوم الكنيسة بنشر مثل هذه الافكــــار · والانسان برأيها عاجز عن معرفة جوهر الظواهر وجوهر الطبيعة والحياة الاجتماعية · فهو لا يستطيع وصف وتصنيف نتائج التكوين الا بفضل النعمة الالهية ·

لقد سدد الماديون ما قبل الماركسية ، الذين كانوا يعتبرون المعرفة مثل انعكاس للموضوعات الخارجية في رأس الانسان ، ضربة قوية للمثالية والظلاميـــــــة الاكليريكية · ولكـن مفاهيمهم عــــــن المعرفة كانت محدودة · وبكونهم ميتافيزيقيين ، لم يعرفوا تطبيـــق الديالكتيك على عمليات المعرفة · واعتبروا الانعكاس اثر الشيء السلبي في دماغ الانسان · وقد قـــــارن ديدرو ، احد الميتافيزيقيين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ، دماغ الانسان بنخروب النحل ، حيث تتـــرك الاشياء اثارها · ولم يكن الماديون قبل ماركس يعيرون اهتمامهم نشاط الذات الذي يقوم بعملية المعرفـــــة ، الانسان · ومن جهة اخرى ، لم يستطيعوا تقييم دور الممارسة العملية في المعرفة · وهنا يكمن ضعفهم ، بشكل خاص ·

وبتجاوزهما ضيق افق الفلسفة القديمة في طريقة فهمهما عملية المعرفة ، كون ماركس وانجلز نظريـــة المعرفة المادية الديالكتيكية ، الجديدة نوعا ·

وتتميز نظريتهما ، بشكل خاص ، في انها تضـــع التطبيق ، النشاط المنتج ، المادي للنـــاس في اساس المعرفة ، وفي اثناء هذا النشاط ، يتعلم الناس معرفـة

الموضوعات والظواهر، والتطبيق،في الفلسفة الماركسية، هو نقطة البدء ، هو اساس ادراك ومعيار الحقيقة ودقة المعرفة ٠ وقد كتب لينين :

« يجب ان تكون وجهة نظر الحياة والممارسة العملية وجهة النظر الاولية ، الاساسية في نظرية المعرفة ٠٠٠ ، انها تؤدي حتما الى المادية ٠٠٠» (١)

وسنأتي على بحث هذا الموضوع نفسه فيما بعد ٠

فالمعرفة ، حسب المادية الديالكتيكية ، هي تقارب غير متناه لفكرة الموضوع الذي نحن بصدد معرفته . هي انتقال من فكرة اللامعرفة الى المعرفة ، من المعرفة غير التامة الى المعرفة الاتم أكثر فأكثر باستمرار ٠٠ وتتطور المعرفة ، مبدلة النظريات البالية بنظريات جديدة ، معيدة النظريات القديمة اكثر وضوحا ومكتشفة دائما مظاهر جديدة للواقع ٠

وبما ان التطبيق اساس المعرفة ، فلندرس طبيعته ودوره في المعرفة ٠

٢ ـ التطبيق هو نقطة البدء واساس عملية المعرفة

التطبيق هو عمل الناس الفعال من اجل تغيير الطبيعة والمجتمع ٠ ويشكل العمل ، الانتاج المادي ، اساس هذا التطبيق ٠ ومن جهة اخرى نصنف في التطبيق النضال السياسي ، وصراع الطبقات ، وحركة

---

١ ـ لينين ـ المؤلفات ٠

التحرر الوطني ، وكذلك البحث والتجربة العلميين · وتتسم الممارسة العملية بسمة اجتماعية · آنها ليست نشاط اشخاص منفردين ، بل مجموعات كبيرة من الناس ، من العمال ، من كل الذين ينتجون الخيرات المادية ·

ولا يكتفي التطبيق بتغيير الموضوعات الموجودة في الطبيعة ، بل يكون موضوعات جديدة : يصنع الانسان كمية من المواد اكثر صلابة ، اكثر اناقة واكثر عملية من التي يعرفها في الطبيعة ·

التطبيق هو نقطة البدء واساس عملية المعرفة · لماذا ؟

قبل كل شيء ، لان المعرفة قد نشأت من الممارسة العملية ، وبشكل خاص ، تحت تأثير الانتاج المادي · فالانسان منذ وجوده ، مرغم على العمل من اجل ان يعيش · فيصطدم ، خلال عمله ، بقوى الطبيعة ، فيتعلم شيئا فشيئا معرفتها · ويفرض تطور الانتاج دائما معارف جديدة · لقد اصطدم الانسان ، منذ أقدم العصور بضرورة قياس مساحة الارض ، باحصاء نتاج عمله · اذا ، من هنا نشأت مبادىء الرياضيات الاساسية · كما ارغم الانسان على معرفة قوانين علم الميكانيك لانه كان يبني المساكن ويشق الطرقات ويقيم الجسور ومشاريع الري ··· الخ · ثم تطورت مقدرات الانسان على الادراك ، فظهرت العلوم · وللممارسة العملية تعود ايضا العلوم الاجتماعية ، والماركسية بدورها هي ثمرة الممارسة العملية للبروليتاريا ونضالها الثوري ·

ومن جهة اخرى،تطرح الممارسة العملية مواضيع محددة وتساهم في حلها · وبذلك تقوم بتطوير المعرفة ·

وهكذا طرح تطبيق الانتاج الكولخوزي والسوفخوزي في الاتحاد السوفياتي مسألة هامة امام علم البيولوجيا: وجوب صياغة اساليب وطرق لخلق اصناف نباتية وحيوانية جديدة ذات مردود عال · وقد تحقق تقريبا حل هذه المسألة من قبل علماء البيولوجيا السوفياتيين· ونجد الان في كل الكولخوزات والسوفخوزات اصنافا جديدة من الحيوانات والنباتات ·

واخيرا ساهم تطبيق المعرفة العلمية على الالات والاجهزة والتجهيزات الاخرى في كشف اسرار وخفايا النواة الذرية · كما ساهمت هذه النوى بدورها في تطوير الاجهزة · فمن الصعب اذا ، تخيل العلوم المعاصرة دون مجاهر الكترونية وصواريخ فضائية·· الخ ·· من المعدات المعقدة او البسيطة · لذا ، فكل هذه الادوات هي نتاج النشاط العملي والمادي للانسان·

وليست الممارسة العملية اساس المعرفة فقط ، بل غايتها ايضا · فيتعلم الانسان معرفة العالم المحيط ويكتشف قوانينه وتطوره ليتمكن من استخدام نتائج معرفته في نشاطه العملي · غير ان هذه النتائج غير مستثمرة دائما على الفور في الممارسة العملية · فمثلا، لقد تم اكتشاف تحطيم الذرة منذ اكثر من ٥٠ عاما ، ولكن الانسان لم يتعلم استخدام الطاقة الذرية الا مؤخرا · وعلى الرغم من ان عشرات السنين تفصل غالبا الاكتشافات العلمية عن تطبيقها العملي ، فانها جاءت مع ذلك نتيجة ضروريات الحياة ·

وحدة النظرية والتطبيق

المعرفة هـــي اسلوب النشاط الانساني في النشاط النظري · ولكن النظرية بمفردها عاجزة عن تغييــــر الواقع ، وهذا ما يميزها عن التطبيق · وان مهمــــة النظرية هي عكس العالم ،وتعميم تجربة الانسانية · وبتعميمها التطبيق تمارس عليه تأثيرها وتساهم فـــي تطويره · والنظرية عقيمة دون التطبيق · والتطبَيــق اعمى دون النظرية · لانها تدله على الطريقة وتساعده على ايجاد الوسائل الاكثر فعالية للتوصل الى اهداف عملية ·

وتقدم علوم الطبيعة ، الناتجة عن التطبيق ، مساعدة عظيمة للانتاج ، لدى تعميمها تجربة الناس المكتسبة من خلال الانتاج · كما تساعد على توضيح اساليب جديدة في الانتاج ، وعلى خلق الات واليات ذات مردود عال ، ومواد اولية اصطناعية ، وتجهيزات ···الخ·

وتقوم النظرية الماركسية ـ اللينينية بدور كبير فـــي تطور المجتمع · وفي كونها الانعكاس الحقيقي للواقع ، وتركيب الممارسة العملية ونضال البروليتاريا الثوري، تكون مرشدا في النضال من اجل الاشتراكيةوالشيوعية· وتكمن قوة المذهب الماركسي ـ اللينيني في انه اميــــن للواقع ، ويسمح بتوضيحه قوانين التطور الاجتماعي ليس بالتأثير بشكل صحيح فقط على الحاضر ، بـــل ايضا في التنبؤ بالمستقبل البعيد ، وفي وضع خطط نشاط الممارسة العملية ·

ان وحدة النظرية والتطبيق هي الاساس الاعلـــى للماركسية ـــ اللينينية . ويتصف هذا المبدأ في ايامنـــا

بأهمية خاصة : لقد انصهرت النظرية الماركسية ـ اللينينية مع تطبيق بناء الشيوعية ، وان حل المسائل العملية ، المتعلقة ببناء الشيوعية ، يصبح في الوقت نفسه ، حلا للمسائل النظرية الكبيرة ·

٣ ـ من الحدس الحي الى التفكير المجرد

لا تبقى المعرفة جامدة ، بل تتحرك باستمرار ، انها تتطور · ويعبر عن هذا التطور في المعرفة في حركتها التي تبدأ من الحدس الحي المباشر الى التفكير المجرد· وقد كتب لينين يقول :

« من الحدس الحي الى التفكير المجرد ومنه الى التطبيق ، هذا هو السبيل الديالكتيكي لمعرفة الحقيقة ، لمعرفة الواقع الموضوعي · » (١)

المعرفة الحسية

تبدأ المعرفة دائما بادراك موضوع من العالم الخارجي عن طريق اعضاء الحواس · وتثبت لنا ذلك التجربة اليومية · واذا ما قررنا دراسة شيء غير معروف ، نبدأ بفحصه بعناية ، واذا لزم الامر ، نلمسه، نتذوقه ، ··· الخ · والحدس الحي المباشر هو المرحلة الاولية ، الخطوة الاولى على طريق المعرفة · انه الدرجة الاولى في نشاط الانسان الواعي · ولكنه في اثناء ممارسته العملية،ومن خلال صلاته مع موضوعات وظواهر الطبيعة ، يتلقى الانسان الانطباعات الاولى عن

---

١ ـ لينين ـ دفاتر فلسفية

طريق اعضاء الحواس · فتكون هذه الاعضاء اذن ، بمثابة الباب الذي يدخل منه العالم الخارجي في وعي الانسان ·

والشكل الرئيسي للمعرفة الحسية هو الاحساس · والاحساس ، هو انعكاس خواص وسمات ومظاهر الموضوع · ويمكن ان تكون هذه الموضوعات حارة او باردة ، مظلمة او مضيئة ، ملساء او خشنة ، فتؤثر بخواصها على اعضاء حواسنا فتحدث الاحاسيس ·

يملك جسم الانسان جهازا فيزيولوجيا متلائما مع تشكل الاحاسيس · ويتركب هذا الجهاز من اعضاء الحواس وألياف عصبية تنتقل التنبيهات من خلالها ، كما ينتقل التيار الكهربائي ، الى المناطق الملائمة في الدماغ حيث تتحول هذه التنبيهات الى احاسيس · فيتحول مثلا التنبيه الذي سببه صوت في اذن الانسان الى احساس صوتي ، وتأثير الضوء على العين الى احساس ضوئي ·· الخ ·

وتكمن اهمية الاحاسيس في عملية المعرفة في انها تقدم لنا معطيات تسمح بالحكم على الموضوع · كما تعتمد كل عملية المعرفة ، فيما بعد ، على المعلومات المتعلقة بالمواضيع التي تقدمها لنا الاحاسيس ·

لقد عرف لينين الاحاسيس على انها صورة ذاتية عن العالم الموضوعي · وهذا يعني ان الاحساس العاكس للموضوعات الموجودة موضوعيا ليس هو اثرها الميكانيكي في الدماغ ، بل صورتها المثالية فقط · اذ تنشأ هذه الصورة في وعي كل انسان ، ويكون من

الطبيعي اذن ، ان تؤثر بشكل ما المميزات الشخصية لهذا الانسان ، ودرجة تطور اعضاء حواسه ، على طبيعة الصورة · فمثلا ، يستمع صديقان الى احدى السمفونيات الموسيقية في ان واحد ·للاول اذن موسيقية، لذا تبعث فيه الموسيقى ومشاعر وصور متنوعة ، اما الثاني فليس له اذن موسيقية ، لذا لا تبعث فيه الاصوات الموسيقية الكثير من التخيلات والمشاعر مثل التي حدثت لدى زميله · اذا ، هاكم شخصين عاديين يدركان بصورة مختلفة التأثيرات الخارجية نفسها ·

ألا نستنتج من ذلك ان اعضاء حواسنا لا تقدم لنا لوحة صحيحة عن العالم ؟ هذا بالتأكيد ما يسود الفلسفة المثالية · وانطلاقا من الامثلة المشابهة لمثالنا السابق ، اكد اللاأدريون المثاليون على ان العالم ليس سوى تركيب من الاحاسيس ، وان هنالك عوالم بقدر ما يوجد اناس · انها وجهة نظر خاطئة · اذ في الحقيقة لا تخدعنا اعضاء حواسنا · واذا كانت شهادة عضو من اعضاء حواسنا مثارا للشك ، فما علينا سوى اللجوء الى عضو اخر · فمثلا ، اذا لم يصدق الانسان عينيه ، يلجأ الى يديه ، واذا لم يكفه ذلك ايضا ، فعليه استشارة اعين وايدي الاشخاص الاخرين · واذا لم يكفه ذلك في النهاية ، يلجأ الى الادوات ، الى التجربة ، الى التطبيق · وهكذا ، تقدم لنا اعضاء الحواس مجتمعة ، وبمشاركة حواس الاشخاص الاخرين والتجربة والتطبيق،مفهوما صحيحا عن الاشياء التي يمكن الوصول اليها ·

وفضلا عن الاحاسيس ، تكون التصورات

والادراكات اشكالا في المعرفة الحسية · والادراك هو الشكل الاعلى في المعرفة الحسية · انه يعكس الكمال الحسي والمباشر للموضوع ، اي مجموع اوجهه السطحية وميزاته · والتصور ، هو تكرار ما قد رآه الانسان في وعيه · فنستطيع مثلا ، تصور ، تكرار صورة احد اصدقاء المدرسة الذي رأيناه منذ عدة سنوات ·

المعرفة المنطقية (الديالكتيكية)

على الرغم من ان اللوحة التي تقدمها اعضاء حواسنا غنية ومتنوعة جدا ، فانها محدودة ، وبعيدة عن ان تكون كاملة · ولا تعلمنا المعرفة الحسية الا عن بعض مظاهر الاشياء الخارجية · فبواسطة اعضاء الحواس ، نستطيع مثلا رؤية مصباح كهربائي ،ولكننا لا نستطيع ان نتصور ان التيار الكهربائي هو عبارة عن سيل من الالكترونات تنتقل بسرعة معينة · ومن المستحيل بواسطة اعضاء الحواس ، ادراك سرعة الضوء الهائلة ، وحركة الجسيمات البسيطة داخل الذرة ، وظواهر اخرى في الطبيعة وفي الحياة الاجتماعية ·

وبالاختصار ،ان المعرفة الحسية عاجزة عن توضيح طبيعة الاشياء الداخلية وجوهرها وقوانين تطورها · لذلك فان مهمة المعرفة الاساسية هي توضيح ذلك ·· ويمكن ان يسترشد الانسان في نشاطه العملي اذا عرف القوانين وجوهر الاشياء · كما يمكن ان يساعده في ذلك التفكير المجرد او المنطقي ·

ان المعرفة المنطقية هي مرحلة عليا ، وجديدةنوعيا،

في تطور المعرفة · ويقضي دورها في توضيح الخواص الاساسية للموضوع وميزاته · وبفضل التفكير المنطقي (المجرد) ، نفهم قوانين تطور العالم الضرورية جدا للانسان في عمله ·

والمفهوم هو الشكل الاساسي للتفكير المنطقي · غير انه لا يعكس كل مظاهر الموضوعات ، بل جوانبها الاساسية والعامة فقط ، ويغض النظر عن ميزاتها الثانوية ويرفضها · ومثال ذلك مفهوم الانسان · لا يعكس هذا المفهوم مجموعة خواص كل فرد · فهو لا يدل على قوميته وعمره ومكان اقامته ··· الخ · انه يثبت فقط ما هو عام ، وأساسي ، ما هو خاص في كل انسان : مثل القدرة على العمل ، على انتاج الخيرات المادية ، على التفكير · ويعبر بالطريقة نفسها عن العام والاساسي في الموضوعات : مفهوم الشجرة ، الحيوان ··· الخ ·

ان المفاهيم هي نتيجة نشاط العقل الطويل والشامل، والتفحص الدقيق للمعلومات العديدة التي جمعتها المعرفة الحسية · وبدراسة الموضوعات عن طريق اعضاء الحواس ، يقوم الانسان بمقارنتها ، فيستخلص العام منها ، بينما يغض النظر عن الثانوي منها ، والسطحي والعفوي · فقبل ان يصاغ مفهوم المثلث ، مثلا ، والمربع وبقية الاشكال الهندسية ، كان الانسان على صلة ، من خلال نشاطه العملي ، بعدد كبير من الموضوعات المثلثية ، والمربعة ، ··· الخ الموجودة موضوعيا ·

تكتسي العمليات المنطقية ، مثل التحليل والتركيب،

اهمية كبرى في تكوين المفاهيم · فالتحليل ، هو تفكيك الموضوع او الظاهرة في تفكيرنا ، الى عناصره المركبة، الى مختلف اوجهها من اجل ادراك مكانها واستنتاج الاساسية والجوهرية منها · اما التركيب ، فهو اتحاد اجزاء واوجه الظواهر · ويتيح لنا ادراك الموضوع بكامله وادراك وحدة كل سماته وخواصه ·

وفي المعرفة ، التحليل والتركيب لا ينفصلان · اذ عندما درس ماركس ، في رأس المال ، اسلوب الانتاج الرأسمالي ، جزأه ذهنيا الى اوجه مختلفة (الانتاج ، التداول ···· الخ) ودرس كل جزء منها · ثم جمع الاوجه المدروسة ، وبذلك حاز على تفكير شامل عن الرأسمالية ·

يبدو للوهلة الاولى ان المفاهيم والمجردات هي اكثر· ركاكة من الادراكات الحسية المباشرة · غير أن كل مفهوم ، في الحقيقة ، وحتى أبسطها ، يعكس الطبيعة بصورة اكمل لانه لا يشتمل فقط على موضوع واحد وصحة لانه يثبت المعطيات الداخلية للواقع ، المتعذرة على المعرفة الحسية المباشرة · انه يعكس الطبيعة بصورة أكمل لانه لا يشتمل فقط على موضوع واحد ، او مجموعة موضوعات ، بل مجموعها ، اي على كمية غير متناهية منها ·

ان الانتقال من الحسي الى المجرد هو قفزة دياليكتيكية في عملية المعرفة ، في حركتها من الادني الى الاعلى · وجوهر هذه القفزة هو ان عقل الانسان ينتقل من معرفة الظاهرة ، اي من وجه الاشياء السطحي والخارجي ، الى اظهار جوهرها وطبيعتها الداخلية ·

وتتم هذه العملية على اساس الممارسة العملية ٠ والنشاط العملي للناس الرامي الى تحويل موضوعات وظواهر العالم المادي ، هو الوحيد الذي يسمح بالولوج الى جوهرها ، وتمييز الرئيسي من الثانوي ، الداخلي من الخارجي ٠ وكلما كانت المعرفة الانسانية عميقة وتامة كان التطبيق اكثر تطورا وقدرتها على التغيير قوية ٠

تعكس المفاهيم العالم المتغير ، الممارسة العملية المتطورة باستمرار ، لذا يجب ان تكون متحركة ومرنة ٠ وتظهر حركية ومرونة المفاهيم في اقصى دقة وتعميق للمفاهيم الموجودة ، وكذلك في تكوين المفاهيم الجديدة التي تتناسب مع الظروف الموضوعية المتغيرة ، ومع الممارسة العملية الجديدة ٠

وتتكون اشكال اخرى للتفكير ، انطلاقا من المفاهيم: الحكم والاستدلال ٠

الحكم هو شكل التفكير الذي يؤكد على شيء ما (مثلا : الاشتراكية هي السلم) ، او الذي ينكر شيئا ما (الماركسية ليست عقيدة) . اذن ، تتشكل الاحكام انطلاقا من مفاهيم معينة ٠

وتشمل الاحكام التي ذكرناها بعض المفاهيم مثل : الاشتراكية ، السلم ، الماركسية ، المذهب ٠ غير اننا لا نستطيع تفسير هذه المفاهيم دون اللجوء الى احكام اخرى مثل الحكم التالي : « الاشتراكية هي نظام اجتماعي قائم على الملكية الجماعية » ٠٠ الخ ٠ لذا ، تكون الاحكام مرتبطة مع المفاهيم ومع بقية الاحكام ٠ ويشكل ترابطها شكلا خاصا للتفكير المنطقي ،

الاستدلال · والاستدلال هو حكم جديد (استنتاج) مستنتج من احكام معينة (مقدمات) · فبالاستدلال نستطيع الحصول على معطيات جديدة ، انطلاقا من المعارف التي بحوزتنا ، وهنا تكمن قيمتها الكبرى·

ويشكل التجمع المعقد ، اي وحدة المفاهيم ، للاحكام والاستدلالات ، اشكالا عليا في المعرفة : الفرضية والنظرية · فالفرضية هي افتراض يشمل الظواهر والحوادث والقوانين · ومثال ذلك الافتراضات عن اصل الحياة على الارض ، وعن اصل النظام الشمسي ، ···· الخ · اما النظريات العملية فهي معرفة عميقة وتامة لبعض عمليات الواقع · ولقداثبتت صحة هذه المعارف بالتجربة ، بالتطبيق · وهذه حال نظرية النواة الذرية الحديثة ، والنظرية النسبية في الفيزياء والنظرية المادية في الوراثة في علم البيولوجيا· ان المادية التاريخية هي النظرية العلمية لتطور المجتمع ·

نلاحظ اذن ، ان المعرفة فيتطورها الدياليكتيكي تجتاز طريقا طويلة ، من ابسط الاحاسيس الى اعقد النظريات العلمية ·

وحدة الحسي والمنطقي في المعرفة

تشكل المعرفة الحسية والتفكير المجرد واحدا ·انهما يعكسان العالم المادي نفسه ، كما يقومان على قاعدة مشتركة : الممارسة العملية الانسانية · ولدرجتي المعرفة هيكلا فيزيولوجيا واحدا : جهاز الانسان العصبي ·

ويكون التفكير المجرد مستحيلا دون معرفة حسية في مجال تقدم فيه معطيات اعضاء الحواس مادة بناء واحدة في تكوين المفاهيم · فلا يوجد شيء في تفكير الانسان غير الذي تقدمه له اعضاء الحواس · غير ان التفكير المجرد الناشيء عـــن الاحاسيس يؤثر بشكل اعمق من المعرفة الحسية ، فيغني الانسان ويوسع مداركه ، وتكتسي الانطباعات الحسية المنارة من العقل مضمونا جديدا · فمن السهل ، مثلا ، ان نقتنع اذا مــا قارنا طريقة مراقبة لوحة قيادة مركز توليد طاقـــــة كهربائية حديث من قبل مهندس اختصاصي ومن قبل شخص يرى هذه اللوحة لاول مرة · ان هذه الاجهزة لا تقول شيئا لشخص جديد ، متمرن · بينما يميـــز اختصاصي وهو يراقب الاطر والرافعات والعقارب نفسها ، حياة آليات المركز المعقدة ·

وبما ان الحسي والمنطقي متحدان ، ويغنيان ويتممان بعضهما البعض ، فلا يجب ان نقلل من بينات الحواس ولا من استنتاجات العقل · غير ان تاريخ الفلسفة قد عرف اتجاهات شوهت عملية المعرفة ·

يقلل ممثلو التجريبية من دور التفكير المجرد فـــي المعرفة · ويعتبرون ان الانطباعات الحسية هي التـــي تقدم فقط للانسان لوحة حقيقية عن العالم · وبما انه لا يوجد في المفاهيم وضوح حسي (لا يمكننا ان نتصور الانسان ، بصورة عامة) ، اكد التجريبيون ان لا شيء في الواقع يتناسب مع المفاهيم ، وان هذه المفاهيم هــي ثمرة خيال الانسان ·

والمذهبالتجريبي واسع الانتشار في الفلسفة والعلوم

الاجتماعية البرجوازية الحديثة · وهذا مفهوم · لان ايديولوجيي البرجوازية يخشون التعميمات الواسعة ، ويتجهون الى التخلي عن المسائل الاجتماعية الهامة في الاحداث القليلة الاهمية والملاحظات السطحية ·

وعلى خلاف التجريبيين ، لا يؤمن ممثلو العقلانية بأعضاء الحواس ، ويعتبرون ان العقل ، التفكير المجرد ، هو الاصل الوحيد للمعرفة الحقيقية . ويقللون من دور المعرفة الحسية ، ويعتبرون ان الانسان قادر على معرفة العالم بحدس صرف ، وبدون تجربة · ويؤدي في النهاية عزل المفاهيم واشكال التفكير الاخرى، بالنسبة للاحاسيس والادراكات ، العقلانيين الى المثالية ·

يجب ان لا نعزل المعرفة الحسية عن المعرفة المنطقية، لان ذلك يقودنا حتما الى تشويه عملية المعرفة ، الى انقطاع بين التفكير والواقع . وهذه هي الميزات الخاصة للمثالية بكل اتجاهاتها · وان المغالاة وحيدة الجانب في احد اوجه المعرفة وعزل هذه الاوجه عن الواقع هي سبب حياة المثالية وبقائها ، انها جذورها في نظرية المعرفة ·

وقد كان لينين يقول ان المثالية هي وردة عقيمة ، مزروعة في ارض طيبة ومطعمة على الشجرة الحية للمعرفة الانسانية القابلة للحياة والخصوبة · وان الجذور الادراكية للمثالية موجودة في عملية المعرفة نفسها المعقدة والمتناقضة·

وتشمل المعرفة باستمرار امكانية الابتعاد بالنسبة لموضوع ترغب في معرفته ، وبالنسبة للواقع · ونلاحظ

هذا الابتعاد بدءا من المفاهيم البسيطة جـدا التـي يستخدمها الانسان باستمرار : « البيت بشكل عام » ، « الطاولة بشكل عام » • غير انه في الحقيقة ، لا يوجد منزل بشكل عام ولا طاولة بشكل عام • بل توجد منازل وطاولات حقيقية ملموسة • ولا يمكننا ان نستخلص من مفهومي البيت والطاولة سوى سمات عامة ، جوهرية، تخص كل المنازل وكل الطاولات •

ويكفي أن ننسى أن أصل المفاهيم موضوعاتحقيقية، لنتمكن من تصور انها وجدت وتوجد بصورة مستقلة ، بدون اية علاقة مع الموضوع • اذا ، انها المثالية •

وهكذا نشأت المثالية الموضوعية التي يعتبر ممثلوها ان المفهوم موجود بصورة مستقلة عن الموضوع • بـل اكثر من ذلك ، انه يخلق الموضوع • اما المثاليون الذاتيون ، الذين يعتبرون انالاحاسيس تشكل المصدر المباشر لمعارفنا ، فقد اعلنوا ان هذه الاحاسيس هي التي توجد فقط ، بينما ليست الموضوعات والظواهر سوى مجموعة احاسيس •

اذا ، فان ضيق الافق والذاتية ، والضلال الذاتي ، هي الجذور الفكرية للمثالية • غير اننا نقول ان هذه الجذور لا تخلق سوى المقدمات ، اي امكانية مثالية ، بينما تقوم قوى اجتماعية معينة بتحويل هذه الامكانية الى واقع • وهذه القوى هي الطبقات الرجعية ذات المصلحة في الانسلاخ عن الحقيقة • اذ تنطلق هـذه الطبقات من مصالحها الطبقية ، وبأسلوب ذاتي ، وحيد الجانب من اجل التصدي للمعرفة ، اي بسلخ التفكير عن الواقع •

ويساهم التناقض الموجود في المجتمع الطبقي بين العمل الفكري والعمل اليدوي في نشر المثالية · اذ يعطي مظهرا في استقلالية الوعي بالنسبة لنشاط الانتاج · وفي كونها محتكرة العمل الفكري ، تنتشر الطبقات المستغلة المثالية وتسعى للحفاظ عليها بكل الوسائل ، وتستخدمها لتبرير سيطرتها والحفاظ عليها ·

وليس للمثالية جذور فكرية (معرفية) فقط ، بل ايضا جذور طبقية ، معبرة عن مصالح الطبقات الرجعية ·

وهكذا ، تتطور المعرفة من الحسي الى المنطقي ، على اساس الممارسة العملية · ومن الطبيعي ان تحتاج نتائج المعرفة الى تصحيح ، الى تدقيق · اذ لا يمكن في الحقيقة ان تسد حاجات الناس العملية الا المعرفة الصحيحة ·

وقبل التحدث عن كيفية تدقيق نتائج المعرفة ، عن كيفية امكانية الوصول الى الحقيقة ، لنبحث في ماهية الحقيقة ·

٤ ـ الماركسية والحقيقة

الخاصة الموضوعية للحقيقة

تعني المادية الديالكتيكية بالحقيقة ، المعلومات (عن موضوع) التي تعكس بصورة صحيحة الموضوع وتوافقه • مثال : هي حقيقية تأكيدات العلوم على ان الاجسام تتركب من ذرات ، الارض وجدت قبل الانسان، الشعوب هي خالقة التاريخ ، ••• الخ •

بماذا تتعلق الحقيقة ؟ بالانسان حيث تولد في رأسه او بالموضوع الذي تعكسه ؟

يعتبر المثاليون ان الحقيقة ذاتية ، وتتعلق بالانسان الذي يعرف بنفسه صحة ما يعرفه ، دون الاخذ بعين الاعتبار الوضع الحقيقي للاشياء « الانسان هو مقياس كل شيء » ، هكذا كان يعبر عن المفهوم المثالي للحقيقة في عهد الفيلسوف اليوناني بروتاغوراس **protagoras** •

وعلى عكس المثالية ، تؤكد المادية الديالكتيكية المدعمة بمكتسبات العلوم وممارسة الانسانية منذ أقدم العصور، على ان الحقيقة موضوعية • وتعكس الحقيقة العالم الذي يوجد موضوعيا ، ولا يتعلق مضمونها بوعي الانسان • وقد كتب لينين يقول :

« الحقيقة الموضوعية هي ما لا يتعلق بالانسان ولا بالانسانية، في معارفنا • وان مضمون الحقيقة محدد بشكل كامل بالعمليات الموضوعية التي يعكسها »•

لنأخذ مثلا التأكيد : « الارض كروية » · انه حقيقي لانه يتطابق والواقع · ولكن هل يتعلق شكل الارض بوعي الانسان ؟ كلا · لقد وجدت الارض قبل الانسان بمدة طويلة وان كرويتها تعود لتأثيرات قوى طبيعية · وهكذا سنصل الى استنتاجات مماثلة اذا ما حللنا بقية الحقائق ·

من الحقيقة النسبية الى الحقيقة المطلقة

بتأكيدها على موضوعية الواقع ، تحل المادية الديالكتيكية مسألة هامة اخرى في المعرفة : كيف يعرف الانسان الحقيقة المطلقة ؟ · دفعة واحدة ، بشكل كامل ، بلا قيد او شرط ، بصورة مطلقة او بصورة تقريبية فقط ، او نسبية ؟ اذا ، تكمن هنا مسألة علاقة الحقيقة المطلقة بالحقيقة النسبية ·

تعود الاختلافات بين الحقيقة النسبية والحقيقة المطلقة الى ان درجات تبادل المعارف مع الواقع ، ودخول العقل البشري الى الواقع ، متبدلة · فتتلاءم بعض المعارف بشكل كامل مع الواقع ، اي بتأكيد مطلق ، بينما لا تتلاءم الاخرى الا بشكل جزئي · اذا ، فالحقيقة المطلقة ، هي الحقيقة الموضوعية الكاملة ، هي انعكاس الواقع الصحيح بصورة مطلقة ·

هل يمكننا معرفة الحقيقة المطلقة بشكل كامل ؟ نعم ، من ناحية المبدأ ، لانه لا توجد اشياء غير مدركة ، من جهة ، ولا توجد حدود لقدرة العقل البشري الادراكية·

غير ان امكانيات المعرفة لدى كل فرد ، لدى كل جيل ، تكون محدودة بالظروف التاريخية ، بمستوى

الانتاج والعلوم والتقنية التجريبية · فلهذا السبب تكون المعارف الانسانية نسبية في كل مرحلة تاريخية ، وتكتسي بالضرورة خاصة الحقيقة النسبية · فالحقيقة النسبية اذا ، هي المعارف التي لا تتلاءم بصورة كاملة مع الواقع · وقد دعا لينين هذه الحقيقة بانعكاس ، حقيقي نسبيا ، لموضوع مستقل عن الانسانية · وبما انها متلائمة مع الواقع ، لذا يجب التأكد منها وتدقيقها وتعميقها ·

ولكن ربما يكون عندئذ من المستحيل معرفة الواقع المطلق ؟ ولكن لا بالتأكيد · فلا يمكن معرفة الحقيقة المطلقة دفعة واحدة وبشكل كامل : لن تعرف الا بعد نهاية مسيرة متواصلة للمعرفة . وان كل انجاز جديد للعلم يقرب الانسان من الحقيقة المطلقة ، ويكشف له عناصر وأوجه وحلقات جديدة · ويقضي تقدم المعرفة على ان الانسان يتوصل الى معرفة الحقيقة المطلقة ، بتعلمه الحقائق النسبية ·

ولنأخذ مثلا نظرية الذرة · فهي تتلاءم ، بصورة جوهرية ، مع الواقع بمجمله ، انها لا تمثل الا حقيقة نسبية · ففي الحقيقة ، لا نستطيع القول ان الذرة معروفة بشكل كامل ، اي بصورة مطلقة · اذ ما يزال فيها كثير من الالغاز ، وقد يعمل بعد اجيال العلماء من اجل حلها · وكذلك ، فان امام العلوم مهمة حل المسائل المعقدة في بنية الجسيمات البسيطة المكونة للذرة ، واسباب تغيرها وتحولها ومسائل اخرى · وتحتوي نظرية الذرة ، في الوقت نفسه ، على عناصر من الحقيقة المطلقة ، من المعرفة الكاملة والصحيحة تماما ، غير ان وجود الذرة ، ونواتها الحاوية على احتياطات

هائلة من الطاقة ، وكذلك كمية من الجسيمات المتحركة والمتغيرة ومعطيات اخرى عن الذرة ، هي حقائق مطلقة، ولقد تحققت بشكل نهائي ٠

اذن ، تحتوي الحقيقة النسبية بالضرورة على جزء من الحقيقة المطلقة ٠ فمعرفة الانسان ، مثلا ، هي مطلقة ونسبية في آن واحد ٠ انها نسبية لانها لا تشمل كل شيء ، ولكنها تتطور وتتعمق باستمرار ، كاشفة دائما عن أوجه جديدة للواقع ٠ انها مطلقة لانها تضم عناصر حقيقية وسرمدية في المعرفة ٠

وللانسان سلسلة من المفاهيم ذات الخاصة الدائمة المطلقة ٠ ومثال ذلك فرضيات الفلسفة الماركسية : « المادة أولية ، والوعي ثانوي » ، « الوعي هو خاصة الدماغ » ، ٠٠٠ الخ ، كذلك قانون حفظ وتحول الطاقة وبعض القوانين الاخرى في العلوم الطبيعية والاجتماعية واستنتاجاتها ٠ ان الفرضيات الاساسية للنظرية الماركسية اللينينية ، التي أثبتت صحتها الممارسة العملية ، هي حقائق مطلقة ٠ وعلى الرغم من تطورها المستمر ، فلا يمكن انكار الاسس الرئيسية لهذه النظرية ٠

كتب لينين يقول :

« المتفكير الانساني قادر بطبيعته على اعطائنا ، بل يعطينا عمليا الحقيقة المطلقة ، التي ليست سوى مجموعة من الحقائق النسبية ٠ وان كل مرحلة من تطور العلوم تضيف بذورا جديدة على هذه المجموعة من الحقائق المطلقة ، غير ان حدود الحقيقة في كل تقدم

علمي تكون نسبية ، موسعة او ضيقة ، كلما تطورت العلوم » ·(١)

كان لينين قد كتب منذ اكثر من نصف قرن بان عقل الانسان الذي اكتشف اشياء رائعة في الطبيعة ، سيقوم باكتشاف روائع اخرى ، مقويا بذلك سيطرته على الطبيعة · وما انجازات العلوم الحديثة ، والعلوم السوفياتية بشكل خاص ، سوى تأكيد واضح على ما تنبأ به لينين ·

لقد ادرك الانسان الاعماق الخفية للذرة ، فروض قواها ، ووضعها في خدمته : تعمل على تحريك آليات المراكز الكهربائية ، وعلى تدوير مراوح السفن الذرية، ومعالجة المرضى ··· الخ ·

وشيئا فشيئا ، يوسع الانسان سيطرته على أنحاء الكون غير المتناهي · فيدرك عقله ليس اعماق المادة فقط ، بل ايضا جوانبها ويكتشف باستمرار اسرارا جديدة·لقد كان يعتقد ، منذ سنوات فقط ، ان الفضاء الكوني فارغ ، تضيئه النجوم البعيدة الخافتة وتجوبه بعض النيازك النادرة · اما اليوم ، فقد انبأت الاقمار الصناعية الانسان عن احزمة الجزيئات المحملة المحيطة بالارض · كما اعطى الانسان معلومات عن الطبقات السطحية للجو ، وتركيبه وكثافته ، عن الاشعة الكونية والنيازك الصغيرة ، تلك الجزيئات الصغيرة جدا للمادة الكونية ·

لقد بدأت الانسانية تحقق حلمها القديم : ارتياد

---

١ ـ لينين ـ المؤلفات ·

الفضاء · وها قد وضع الانسان قدمه على سطح القمر، ولن يطول الوقت كثيرا حتى يضع الانسان قدمه على كواكب اخرى ، وبذلك ستضاف عناصر اخرى على المجموعة غير المحدودة للحقائق المطلقة ·

الحقيقة ملموسة

تعتبر المادية الديالكتيكية الحقيقة التي نحصل عليها عن طريق المعرفة تخص دائما مجالا محددا وملموسا من الواقع ، وانها تتطور ايضا في الظروف الملموسة · اذا ، ليس هنالك من حقيقة مجردة،انها دائما ملموسة·

فهل علم الميكانيك الكلاسيكي ، مثلا ، هو حقيقي ؟ نعم ، ولكن في مجال ملموس ، محدد فقط · انه يعكس، بشكل صحيح ، حركة الاجسام المرئية ، ولكنه غير صحيح مطلقا ، في مجال العالم غير المرئي · اذ هنا ينطبق ميكانيك جديد : علم ميكانيك الكانتا · وكذلك هو حال كل حقيقة اخرى : اذ يكون من المحتمل ان لا تعكس بشكل صحيح كل الظواهر الاخرى ، بينما هي تعكس بشكل صحيح بعض الظواهر الملموسة ·

ولكن لا يمكن ان تكون الحقيقة سرمدية ، في عملية واحدة معطاة نهائيا · اذ تتطور العملية نفسها ، كما تتغير الظروف التي تتطور فيها · كذلكَ تتغير ايضا الحقيقة التي تعكسها · يمكن اذن ، ان يصبح خطأ ما كان حقيقيا ، في ظروف جديدة ·

٥· ـ التطبيق معيار الحقيقة

ان وضع معيار للحقيقة يعني ايجاد القاعدة الموضوعية ، المستقلة عن الانسان ، التي تسمح بتمييز

الحقيقة ، العلوم الحقيقية ، عن الخطأ ·

ان معيار الحقيقة الوحيد هو التطبيق · اذ يمكننا ان نجادل في حقيقة هذه الفكرة او تلك ، هذه النظرية او تلك ، ولكن التطبيق هو الوحيد القادر على حسم هذا النزاع : الانتاج ، الحياة السياسية ، التجربة العلمية · وقد كتب ماركس يقول :

« ليست مسألة المعرفة ، فيما اذا كان التفكير الانساني قادر على التوصل الى الحقيقة الموضوعية ، مسألة نظرية بل مسألة عملية · ففي التطبيق ينبغي على الانسان ان يبرهن على الحقيقة ، اي الواقع ، وعلى القدرة ، ما قبل تفكيره » ·

لا يقبل المثاليون ، على مختلف اتجاهاتهم ، هذا الافتراض الهام للمادية الديالكتيكية · فهم يجهلون اهمية التطبيق في المعرفة ، ويعتبرون ان الانسان ذاته ، اي تفكيره ، هو معيار الحقيقة · ويؤكد البرغماتيون ، ممثلوا اتجاه فلسفي مثالي واسع الانتشار في الولايات المتحدة ، بأن الحقيقي هو المفيد ، هو الذي يثمر · وبهذه الطريقة في فهم الحقيقة ، يبرر البرغماتيون الممارسة العملية الرجعية للرأسمالية المعاصرة · وبما ان استغلال العمال ، والحروب الامبريالية ونهب البلدان النامية هي اساليب مثمرة للرأسمالية ، فهي اذا حقيقية ومشروعة ، من وجهة نظر البرغماتيين ·

اما في الحقيقة ، فلا يمكن ان تكون الفائدة معيارا للحقيقة · بل على العكس ، فان المعارف الحقيقية فقط هي المفيدة للانسانية · اذ لا يمكن ان يعتمد الانسان في ممارسته العملية الا على المعارف الحقيقية ، الصحيحة · والحقيقة بمفردها هي التي تسمح بالحصول

على النتائج المرجوة · وهنا يتوصل الانسان ، من خلال نشاطه العملي ، وبالاعتماد على المعارف التي حصل عليها ، الى الهدف الذي وضعه لنفسه ،ويحصل على النتائج المرجوة · وبما ان معارفه تتلاءم مع الواقع ، لذا تكون حقيقية ·

وهاكم هذا المثال : منذ اكثر من خمسين عاما ، وضع العالم الروسي قسطنطين تسيولكوفسكي النظرية العلمية للملاحة بالصواريخ · لقد بعث منذ ذلك الحين بفكرة جسوره خيالية في عصره ، لامكانية استخدام الصواريخ في الوصول الى الاجرام السماوية ·

لقد لزم الكثير من الجهد من اجل تحقيق افكار تسيولكوفسكي · ولقد توصل السوفياتيون الى تحقيق ذلك ، في ١٤ ايلول ١٩٥٩ ، في الساعة صفر ودقيقتين و ٢٤ ثانية ، اذ وصلت اول مركبة فضائية الى القمر · لقد تحقق اول سفر من الارض الى احد الاجرام السماوية · وهكذا تحققت افكار تسيولكوفسكي عمليا وسافر الانسان الى الاجرام الاخرى ·

ويتحقق من صحة النظريات والافكار الاجتماعية من خلال الممارسة العملية ، ومن خلال نضال الطبقات الثوري ، والنشاط السياسي للدول والاحزاب ، ومن خلال نضال الشعوب من اجل السلم والتقدم · كما تأكدت تماما حقيقة النظرية الماركسية اللينينية من

خلال الحياة نفسها ، ومـــــن خلال الممارسة العملية للحركة الشيوعية الدولية · وان مسيرة الانسانيـــة التي لا تقهر ، من الرأسمالية الى الاشتراكية ، هـــي الدليل القاطع علـــى القوة الحيوية وصحة مذهب الماركسية اللينينية الذي لا يقهر ·

الفهرس

ص

ـ الفصل الاول : المادة واشكال وجودها ٥

ـ الفصل الثاني : المادة والوعي ٣١

ـ الفصل الثالث : الديالكتيك الماركسي تفسير التطور والارتباط الشامل ٥٣

ـ الفصل الرابع : القوانين الاساسية للديالكتيك المادي ٦٧

ـ الفصل الخامس : مقولات الديالكتيك المادي ١٠٧

ـ الفصل السادس : نظرية المعرفة في المادية الديالكتيكية ١٥١

صدر من سلسلة دليل المناضل (في النظرية)

١ ــ شرح في المادية التاريخية
لجنة التثقيف الجماهيري
في الحزب الشيوعي الكوبي

٢ الماركسية والطبقات الاجتماعية

نيكوس بولانتزاس

٣ ــ الماركسية والمسائل الجنسية عند المراة

برنارد مولودورف

هذا الكتاب

● الشيء الأساسي في المادية الديالكتيكية هو الطريقة التي تحل بموجبها المسألة الاساسية للفلسفة : العلاقة بين المادية والوعي .

● هكذا ينطلق هـذا الكتيب المختار من تأليف (ف . آفانا سييف)السوفياتي وهو استاذ أكاديمي ملتزم يتمتع بقدرة فائقة على الشرح المبسط السلس السهل ، فجاء كتابه هذا كأفضل ما كتب بأسلوب تعليمي ممتاز ، وجدنا فيه ما تهدف اليه هذهالسلسلة من دليل المناضل التي تقدمها دار ابن خلدون للقارىء العربي كمكتبة تعليمية تهدف من خلالها الى تقديم خلاصة مبسطة لمختلف فروع المعرفة بمنهج علمي تقدمي .

« الناشر »

الثمن : ٣٧٥ ق.ل. او ما يعادلها